محمد عبد حسن

خرائط الشتات

رواية

البصرة ٢٠١٣ م

(أوراق مهمة كتبها رجل غير مهم)

حين تقرر الرحيل.. تتفقد أمتعتك، وكلما اقترب موعده أكثر تعيد ترتيبها من جديد، ما كان مهمًّ ا قبل شهر يصبح أقل أهمية بعد أسبوعين، ثم ينتقل من حقيبة إلى أخرى قبل أن يستقر أخيرًا قريبًا من الباب مع الأشياء التي أصبحت زائدة، تتعلق بها عيناك، ويمنعك خواء جيبك العاجز عن دفع غرامة الوزن الزائد.. يمنعك من النظر إليها، يدير رأسك بعيدًا عنها.

هكذا كان شأن الكثير من الأشياء التي بقيتْ معي. حقيبة سوداء واحدة، تشبه تلك التي كان يحملها الحلاّقون قديمًا، كانت تنتقل من مكان إلى آخر، فمرّة كنت أخبئها بعناية أو أضعها ظاهرة مع بقية حقائبي، ولليلة واحدة فقط بقيتْ مرمية قريبًا من الباب، ولكنها لم تبق هناك الليل كلّه، الذي جعلني أستيقظ فزعًا للبحث عنها هو الشخص الذي أودعها لديّ قبل أن يغيب، رأيته ينتصب أمامي واقفًا طالبًا حقيبته، ولمّا كنت تائها وسط فوضى الأشياء التي تحيطني لم أستطع إيجادها بسرعة، وكان يلحّ عليّ، أراه خلفي في كل خطوة أخطوها، استيقظتُ فزعًا.. وكان قدح الماء الواقف عند رأسي فارغا، وفي طريقي إلى المطبخ لملئه وقعتْ عيناي على حقيبته مرمية قريبا من الباب، اتجهت إليها فورا.. حملتها ووضعتها مع أمتعتي.

لم أكن أعرف الرجل، اسمه الأول فقط هو ما بقي في ذاكرتي التي لا أعوّل عليها، الليلة التي قضاها معنا بقي فيها صامتًا، لم يتحدث كثيرا، بل ربما لم يتحدث أصلا، كنت أراه جالسًا محتضنًا حقيبته، شبح ابتسامة يطفو على شفتيه حين كنّا نضحك بصوت عالٍ.

كنت في (الزاوية)، وهي مدينة لا تبعد كثيرًا عن مدينة (زوارة).. المنفذ البحري الذي يستخدمه المهربون لرفد السواحل الإيطالية بالمهاجرين غير الشرعيين، موقعي هناك جعلني محطة لبعض من أعرفهم، والكثير ممن لا أعرفهم كصاحب الحقيبة، من العراقيين وهم في طريقهم لركوب البحر.. الأمر الذي جعل زاوية الغرفة الوحيدة التي أسكنها تمتلئ بالأمتعة. كان المبحرون يخرجون بحقائب كبيرة تصغر تدريجيًا، حتى إذا كانت محطتهم الأخيرة قبل الصعود إلى الزورق لم يبق معهم غير كيس من النايلون يضمّ قطعتين من الملابس الداخلية وربما سروال من الجينز ومنشفة صغيرة يلفّ بها رأسه بعد أن يصعد. هذا الأمر جعل أكياس النايلون تتكاثر في زاوية الغرفة بأكثر من لون، الحقائب، وكلّها قديمة شبه ممزقة، تتراص واحدة جنب الأخرى.. ومن ثم فوقها.

لا أدري كيف يفكر شخص، ينوي عبور البحر بزورق محطم، حين يكتب اسمه على ورقة ليضعها في كيس قد يخفي، في أحسن الأحوال، ملابس ليستْ جديدة! هل يفكر أنه، إذا وصل هناك، سيحتاج إليها؟! أم أنه يفقد الثقة في البحر أصلا فيترك خلفه بعض ثياب وأشياء أخرى قد تنفعه حين يخذله البحر! لا أدري.

مع كل قصاصة ورق يسجل عليها اسم لتوضع في حقيبة أو كيس نايلون كان اسمي ورقم هاتفي يدوّن في أوراق صغيرة تحشر بعناية بين الأوراق النقدية الخضراء الملفوفة بحرص شديد لحمايتها من الماء، ومع ذلك.. لم يطلبني أحد من خلف البحر يومًا. كان المبحرون يغيبون، بعضهم يصل إلى الشواطئ البعيدة، والكثيرون منهم لا يصلون، يبتلعهم البحر.. أو قد تقبض عليهم الدوريات التي تجوب السواحل بحثا عنهم، فيبقون متنقلين من سجن

إلى سجن.. ومن مخفر إلى مخفر حتى ينتهي بهم المطاف بعيدا، لا تبقى أهمية لحقيبة متروكة في مكان ما أمام خيبة كبيرة تشبه تلك التي يعيشها المبحرون الفاشلون.

مرّات قليلة فقط كان فيها البعض يعودون لأخذ أماناتهم، فقد تلغى الرحلة.. أو قد يغير المبحر رأيه حين يرى شكل الزورق المتداعي وأعداد المهاجرين الكثيرة التي تتصارع على الشاطئ للصعود إليه. (لستُ مضطرًا لذلك). قال لي أحدهم عندما عاد يومًا لأخذ ما تركه عندي في طريق عودته حين قرر أن لا يصعد إلى الزورق.. وأضاف:(حياتي أغلى بكثير من أن أضعها مع كل هؤلاء المنتظرين القفز إلى الماء، شعرت أنهم سيرمون بعضهم بعضا إلى البحر إذا اعترضتهم مشكلة ما. وهنا.. أين أنا من كل ذلك! أنا هنا آكل، وأنام، ولدي امرأة أتردد عليها أو تجيء هي إليّ كلما استطعنا ذلك.. وأحلم.. نعم.. أحلم بالوصول إلى الشاطئ الآخر، ذلك أفضل بكثير من أن أفقد حتى القدرة على الحلم. لا أدري ، ربما أعود مرة أخرى وأمرّ بك ثانية). ثم حمل متاعه وذهب.. ولم أره مرة أخرى.

كما قلت.. الكثير من الأشياء تكدّست عندي بهذا الشكل، ولكون الغرفة التي كنت أسكنها ليست كبيرة بما يكفي.. كنت أعيد ترتيب هذه الأشياء بين فترة وأخرى، وربما أتخلص من بعضها خصوصا تلك التي مرّ على بقائها فترة طويلة أطمئن معها إلى أن صاحبها لن يسأل عنها، وكنت أحرص على أخذ الإذن من أصحابها بذلك.. وهو أن أتصرف بها كما أشاء في حال عدم عودتهم لاستردادها، فأعطيت الكثير منها لبعض العمال الأفارقة، والكثير منها بقي مكومًا على حاله في زاوية الغرفة ومنها حقيبة الرجل الذي زارني في الحلم طالبا استردادها.

في الصباح دفعني الفضول إلى فتحها وتفقد محتوياتها بشكل أدق هذه المرة.. ولم يكن هناك غير قطعتين من الثياب، كتاب نزع غلافه، ودفتر مغلف بورق ملون ومربوط بسلك رفيع أحمر بذات الطريقة التي تربط بها الهدايا.

تصفحته على عجل فشدّ انتباهي، ولمّا كنت أحزم أمتعتي للعودة إلى الوطن ولا أجد الوقت الكافي لقراءته كله.. أجّلتُ ذلك إلى وقت أكون فيه أكثر هدوءًا. وهكذا حصل. فالأوراق التالية هي كل ما وجدته في دفتر الرجل الذي أشك في أن ذاكرتي تحتفظ باسمه صحيحًا.

(هذه الأوراق)

يستفزك بياض الورق المبسوط أمامك لليوم الثالث دون أن تكتب شيئا، وبقدر استفزازه لك.. فإنه يجعل الأحداث في رأسك تغلي كمرجل مسجر لا يجد ماؤه منفذًا للخروج.. يعجز رأس قلمك عن اللحاق بالأحداث وهي تمرّ أمام عينيك كالبرق الخاطف فتهرب منها متفحصًا ومتحسسًا، بيدك، الجبس المحيط بكاحلك المكسور تاركا عينيك تعيدان تفحّص موجودات غرفتك التي تستطيع وصفها بكل تفاصيلها حتى وأنت مغمض العينين.

لطالما كان هذا مشروعًا مؤجلا ألحّ عليّ كثيرا.. وأخرته كثيرا متعللا بإمكانية حصولي على استقرار نسبي أستطيع معه ترتيب أفكاري بشكل ما، ولم يكن ذلك يحصل مع أني كنت قد جهّزتُ أوراقي منذ أيامي الأولى في غرفتي تلك في الأهواز حيث عملت مراقبا ومشرفا في مزرعة، في أول نزول لي إلى المدينة حرصت على شراء بند ورق وأقلام عدة، في الأيام الأولى كان الطواف في المزرعة النهار بطوله ينهكني، ومع ما كنت أدونه مساءً عن الأشياء التي تدخل إلى المخازن وتخرج منها.. لم يكن يتبقى الكثير من الوقت. ولمّا اعتدتُ على ذلك وظننتُ أنه يمكنني أن أبدأ طرقت بابي ذات مساء فتاة أهوازية وبعثرتْ أوراقي من جديد لينتهي الأمر ببند الورق إلى قصاصات صغيرة أدون عليها يوميات العمل قبل نقلها مساءً إلى السجل الذي أحتفظ به في غرفتي.

في سوريا.. لم يكن الأمر أحسن حالا، على العكس، فحتى الغرفة التي كانت تؤمن لي خلوة أنا بحاجة إليها.. حتى هذه فقدتها، فقد كنّا نسكن جماعات بأمزجة وأهواء واهتمامات مختلفة، إذ لا يوفر دخل أي منّا استقلالا نسبيا له. ومع أني حاولت أن أكتب شيئًا في أيام العطل لمّا كنت أخرج إلى الساحات والحدائق العامة.. إلا أن الأمر بقي عند مجموعة ملاحظات ومواضيع غير مكتملة مزّقتها كلها قبل انتقالي ليبقى المشروع مؤجلا كما هي الحياة بالنسبة لي.

في عمّان، التي لم أبق فيها طويلا، عشتُ وضعا مماثلا، جسدي، الذي لم يعتد على هذا النوع من العمل الشاق، إذ أنني اشتغلتُ عاملا خلف بناء مرة وخلف بلاط مرة.. وكان عليّ، مع كل منهما، عمل كل شيء.. فقد كنت وحدي، احتاج الكثير من الوقت ليصبح متمرسًا، والوقت القليل الذي يتبقى كنت أقضيه متجولا في الساحة الهاشمية والمناطق القريبة منها لأجد نفسي بعدها جالسا على أعلى صفٍّ في المدرج الروماني متأملا الكثير من الشقر وهم يحرصون، كل الحرص، على التقاط العديد من الصور بين أعمدته وأحجاره المتناثرة.

هل كنت حقا لا أملك الوقت! ليس تماما، فهذا بعض الحقيقة التي يكمن بعضها الآخر في كسلي وعدم قناعتي في أن ما سأكتبه سيكون مهما، ولمن أريد كتابته؟ هل ليقرأه الآخرون فيعرفوا بعض ما جرى ويجري؟ أم إني أحاول إفراغ رأسي من كل ما يدور فيه ويقلقه ليلا ونهارا علّي أستطيع، إن أنا فعلت، توفير مساحة فيه تمكنني من التفكير بشكل أفضل؟

أيّا يكن السبب.. فالرغبة تلك ما زالت تلحّ عليّ، وهذه الفترة التي وفرها لي كاحلي المكسور بعد محاولة ركوب البحر الأخيرة والتي انتهت بالفشل.. هذه الفترة لا أريدها أن تضيع، فهي ضائعة أصلا كضياعي خلف اسم لم أختره وفي أماكن لم أتمكن، حتى الآن، من الوصول إلى غيرها. يوفّر لي الصباح، الذي أدرك طوله في أشهر الصيف هذه أكثر من أي وقت مضى.. يوفر لي وقتا جيدا للمحاولة وترتيب الأفكار، فباب غرفتي لا يطرقه أحد صباحا إلا نادرا، إذ أن القلة الذين اعتادوا زيارتي ينتشرون صباحا كل في عمله، وبعد أن كانوا يترددون علي مساءً كل ليلة تقريبا.. تباعدت زياراتهم لتقتصر على ليالي الجمع وصباحاتها. مكنني ذلك من ترتيب أفكاري قليلا، إلا أن البداية بقيت صعبة، ربما كانت الفوضى التي

أعيشها والضياع الذي أختبئ فيه، كطفل تحت عباءة امرأة غير أمه، هما ما يدفعاني بعيدا عن البداية.

أقرّ بصعوبة البدايات، وأعترف أنني إن بقيت أبحث عن بداية أظنها مناسبة فلن أفعل شيئا. أعتقد أن الحل يكمن في الانسياق لفوضى الذهن وتشظي الذاكرة.. هذا ما اهتديت إليه أخيرا بعد أيام من الحوار الصامت مع هذه الأوراق الموضوعة أمامي.. وهو أن أبدأ من أي مكان.. أكتب أي شيء أشعر أنني أستطيع كتابته كاملا وبذلك أكون قد أفرغت بعضا مما ينوء بحمله رأسي المتعب، ربما يتيح ذلك لأفكار وصور أخرى أن تتدفق، أحداث تنزّ لأدونها قبل أن تضيع، ثم لماذا هذا الإصرار على أن تكتب بتسلسل منطقي! ما هو المنطقي في كل ما جرى ويجري لك؟ الفوضى التي عشتها انقلها على الورق ما دمت، حتى الآن، عالقا وسطها، ربما يتاح لك، في وقت آخر، زمان تكون فيه أكثر هدوءا.. بصرك يسرح في مساحات خضراء شاسعة.. أو تكون جالسا بمواجهة بحر هادئ تبدو مياهه كمرآة صقلت للتو، إعادة النظر في أوراقك التي تنوي كتابتها لتعيد ترتيبها من جديد.

هل سيجيء ذلك الوقت؟ على أية حال.. ها أنت تنتظره، تحلم به، يعيقك الجبس المحيط بقدمك اليمنى عن التسكع في الأماكن التي يتواجد بها المهربون لتشمّ رائحة زورق على وشك المغادرة. الأيام المتبقية لك، والتي ستقضيها وحيدا هنا، استثمرها في الكتابة. أي شيء يخطر في بالك دوّنه قبل أن تتمكن من السير سويا مرة أخرى، عندها ستؤجل مشروعك، كما كنت تفعل دوما، لتضيع بين عمل ضجرت منه وطواف يومي ينتهي بك مساءً على ساحل البحر لتملأ رائحته صدرك متجولا في طرق مضاءة على الجهة الأخرى منه والتي لا ترى عيناك منها شيئا غير ظلمة البحر المطبقة.

(١)

"أنت".. أشار لي. أراه بوضوح، على بقايا ضوء السراج الذي أوشك أن ينطفئ، جالسا فوق كرسي حديد، تمتد ذراع خشبية من تحت إبطه حتى تلامس قدميّ فيما يحتفظ ببندقيته، بكلتا يديه، حاشرا مؤخرتها بين فخذيه.

قبل أن يحل المساء عليك أن تضطجع، تهيئ لك مكانا ترقد فيه، هذا في أول الليل، أما في آخره.. فترتب الأجساد نفسها بطريقة ما.. بفوضى دونها لا تتسع هذه القاعة لثلاثمائة شخص. أمس كنا أربعمائة. بقي البعض واقفا إلى الصباح على قدم واحدة، وكنت جالسًا أول الليل، ألصق فخذي بصدري، بعدها وجدت لجثتي مكانا فوق الآخرين.. فنمت. في الصباح.. كان مرفقي الأيسر يغوص بين ضلوع أحدهم. "قتلتني".. قال لي. في الحقيقة لست من فعل ذلك، قتله شخص آخر.. كان رأسه معصوبا بخرقة قماش مخططة قذرة، قدماه حمراوان منتفختان، تتوزع ظهره وصدره لطخات حمراء مزرقة. فنهضتُ.

هذا المساء بدت القاعة ضيقة وكأنهم لم يخرجوا منها مئة بعد الظهر، نقلوا إلى مكان آخر.. ربما إلى (المسرح) المجاور. اضطجعتُ.. فبدا جسدي طويلا بشكل لم آلفه. وكان الحارس منتصبا عند قدمي، يتطلع في القاعة. "كنتم أمس أربعمائة ووسعتكم، واليوم أنتم ثلاثمائة ولا تسعكم"! يخطو، بحذائه الثقيل، إلى الداخل. يبدأ، عند مؤخرة القاعة، بترتيب الأجساد. يلصق هذا بالجدار. يدفع ذاك إلى الزاوية. "أنت.. اسحب رجليك. تعال، أنت الواقف، تعال هنا، اجلس بينهم. حسن". ينسحب للخلف، وبانسحابه تبدو الأجساد ساكنة أول الأمر، وإذ يبتعد تتمدد، تسرق، من بعضها البعض، فضاءاتها، أو تتشارك في فضاء واحد. وصل إليّ. أحسّ قدميّ تلامسان الباب مع أني كنت في ثلث القاعة الأول. "لم رجليك". وخزني بغصن كان بيده في حين بندقيته معلقة بكتفه فسحبت ساقيّ. أجلس واحدا أمامي. وبقيت هكذا حتى خرج ليجلس على كرسيه الحديد القريب من باب القاعة المفتوح على سعته.

"أنت! ألم تسمع؟". وكان اللسان الأحمر المتأرجح فوق فوهة قنينة من الزجاج يوشك أن يخبو. القاعة، إذ أصبح الضوء ضعيفا أكثر من قبل، تتسع، يزحف الظلام من الخلف ملتهمًا أجزاءها شبرا شبرا، يتراجع الضوء، يحتمي بما تبقى من اللسان الأحمر القصير. تبدأ الحواجز بالتساقط. الجدران تختفي. القاعة جزء من العالم المظلم في الخارج.

"أنت!". ركلني هذه المرة. انتبهتُ إليه واقفًا على رأسي. أَ َمِل القنينة قليلا". كان يريد إيصال ما تبقى من (الكاز) إلى اللسان الذابل ليديم توهجه. مددت يدي إلى القنينة. وعندما قلبتها.. انطفأتْ.

(٢)

- إلى أين؟
- لا عليك. اتبعني فقط. أنا ابن هذه المنطقة، وبيتي لا يبعد كثيرًا، ربما نصله قبل أن تشرق الشمس. انحن! ألا تسمع الرصاص يمزق كل شيء حولنا؟
- وهل سنصل؟!
- لا أدري. ولكننا الآن في الخارج. أصبحنا بعيدين عن سور المعهد. علينا أن نصل إلى مكان ما.

كان صوت الرصاص ورشقاته قد بدأت تخف دون أن تتوقف تماما. لم نكن وحدنا من هرب.. كثيرون، بالتأكيد، توزعت أجسادهم في اتجاهات شتى، وكنت ورفيقي، الذي لا أذكر أني رأيته من قبل، نركض معا باتجاه يعرفه هو. أما أنا.. فلم أكن دخلتُ (معهد البتروكيمياويات) هذا من قبل أو حتى وصلت إلى بابه، وها أنا أقف في طابور طويل مع معتقلين كثر حملتنا سيارة (إيفا) عسكرية من فندق (حمدان) وسط البصرة مخترقة شارع (الاستقلال) باتجاه نهر (الخورة)، ومع كل شيء أراه كانت ذاكرتي تتقد. اجتزنا نصب (عتبة بن غزوان) وكانت منصته فارغة، كان مختبئا.. ربما يكونوا قد اعتقلوه.. أو ترك المدينة مثل الكثير من أبنائها فيما بدت واجهة بناية (الإعدادية المركزية) بائسة أكثر من أي وقت آخر رأيتها فيه، تخترقها القذائف في أماكن عدة وكان بابها الخشبيّ الكبير محطما ترقد إحدى ضلفتيه على السلم المؤدي للمدخل في حين تندفع الضلفة الثانية إلى الداخل كاشفة مدخلا كئيبًا تركته كل أشكال الحيوات التي عبرته منذ عقود.

بدت الشوارع فارغة.. وشمس آذار ترسم ظلالا لا تبتعد كثيرا عن الجدران مثلها مثل الأجساد القليلة التي تتدحرج على عجل من الشارع الرئيس إلى الطرق المتفرعة منه.

تندفع سيارة (الإيفا) مجتازة الطريق المحاذي لسور الإعدادية الجنوبي، في نهاية هذه الطريق مدرستي الابتدائية.. أمامها (مستوصف صحة الطلاب). لِمَ يتعمد هذا السائق تعذيبي؟ أم تراه يسدي إلي معروفا وهو يمر بي من هنا قبل أن يحملني إلى مكان قد لا أعود منه أبدًا؟

خبأنا النخل. كانت جذوعه تحف بأجسادنا ونحن نركض فيما سعفه المتدلي ينشق أمامنا كانشقاق قصب كثيف أمام اندفاعة قوية لـ (مشحوف) بصدر عال. ومع أول الصباح بدأت الجذوع تبتعد والقامات تستطيل لتستقر هناك، في الأعلى، حيث الريح تلاعب أطراف السعف كعادتها منذ الأزل.

(٣)

ها أنت تتذكر كل ذلك الآن وأنت مستلق على سرير حديديّ مركون في زاوية الغرفة التي أوصدت بابها بعد دخولك. ما زلتَ خائفا، أيام كثيرة مرّت وهذه المشاهد ترفض تركك. لقد تركت كل شيء لك هناك. فررتُ بثيابي كما يقولون. وحتى الثياب لم تكن ثيابي. أعطانيها الرجل بعد أن خلعتُ (دشداشتي) المليئة بالقمل. كان ذلك في داره التي بدأت تلوح لنا مختبئة بين جذوع النخل. سألته:

- هل تسكن هنا؟
- أنا وأمي نسكن هنا.

بدأت خطواتنا تهدأ. اقترب هو من نافذة مغلقة في جدار الطين المتشقق وبدأ يطرق طرقا خفيفا على الخشب. (أمي.. هذا أنا. لقد عدت). لم أكن قريبا منه لأسمع إن كانت قد صدرت أية حركة أو صوت من الداخل، إلا أنني رأيته يتحرك باتجاه باب الدار المصنوعة من الصفيح التي يبدو أن أحدًا قد بدأ معالجتها من الداخل محاولا فتحها. صوت مزلاج يسحب.. وسلسلة تمر بسرعة عبر حلقة حديد.

حين صرَّ الباب منسحبا بانت كتلة سواد وكأنها عين كبيرة تستطلع صدق الصوت الذي سمعته من قبل. أعتقد أنها تركت لنفسها فسحة زمن لتطمئن فيها إلى أنها لم تكن تحلم، وإلا فلا يعقل أن تتيه أم عن ولدها. لم تكد تفتح ذراعيها حتى ارتمى على صدرها محتضنا كل منهما الآخر.

كنت ما أزال واقفا على بعد أمتار من الباب أسمع صوت نشيج مكتوم يصاحبه اهتزاز جسديهما. تذكرتُ أمي التي لم أرها منذ أشهر. ها هي تفقد ولدا آخر. بقيت واقفة على الباب، في حين كنت أنقل خطواتي مبتعدًا، و(طاسة) الماء بيدها، يومها عدتُ.. قبلتُ رأسها ومضيتُ مبتعدا دون أن التفت.. مطبقا عيني على الوجه المؤطر بـ (شيلة) سوداء وجسد متلاش في ثوب طويل لا يبتعد لونه عن السواد كثيرا. ترى.. هل سأتمكن من احتضانها يومًا؟

- تعال. أنا أمك أيضًا.

تركته متقدمة إليّ فاتحة ذراعيها لضمّي. وعندما احتوتني أدركتُ أن للأمهات عندنا رائحة واحدة. بقيت تضمني حتى هدأت ارتعاشة جسدي، بعدها سحبتني إلى الداخل، وقبل أن توصد لباب تطلّعتْ إن كان أحد قد رآنا. لم يكن هناك غير النخل.. عندها بدأت تعالج باب الصفيح، من جديد، لتغلقه.

باحة الدار الطينية ضيقة. على يسار المدخل بابان من خشب قديم متقشر الطلاء لما يبدو أنهما غرفتان.. باب آخر، يقابل باب الصفيح، يقود، ربما، إلى ما يشبه مطبخا، وفي زاوية الدار البعيدة بابان آخران أمامهما خزّان مياه صدئ وضع تحت حنفيته الناضحة قدر من النحاس فاض، بعد امتلائه بقطرات الماء المتساقطة، ليرسم بقعة من الطين حوله.

هكذا رسمت خارطة الدار في اللحظات التي غاب فيها ليحضر لي، من الداخل، حصيرة من القصب فرشها بجانب الجدار:

- استرح هنا حتى أسخن لك الماء. ربما لست معتادًا على السباحة بماء بارد.

وتركني قبل أن أجيبه داخلا إحدى الغرف ثم رأيته يخرج حاملا ثيابه باتجاه الحمام. كانت أمه واقفة أمامي حين أسندتُ ظهري إلى طين الجدار. تغلغلت برودته فيه. (سأهيئ لكما لقمة).. وانسحبت باتجاه المطبخ. وحين بقيت وحيدا أحسستُ بحاجة لطرح جسدي على الأرض.

تنفتح السماء بكل زرقتها الواسعة أمام عينيّ. هل تتذكر آخر مرة رأيتَ فيها سماء كهذه؟ في الدقائق القليلة التي كنتَ تخرج فيها لقضاء حاجتك لم يكن هناك متسع من الوقت لرفع الرأس إلى السماء، فالعيون مشغولة بالبحث عن بقايا علبة صفيح.. أي شيء بإمكانه حفظ كفٍّ من الماء، ثم الحصول على مكان شاغر في حلقات التغوط. كنتم تتغوطون وأنتم تتحدثون! ترى.. هل تتذكر السماء ذلك وهي على كل هذا البعد؟

- قم. لقد أدخلتُ لك الماء الساخن، ليس كثيرا.. ولكن أفضل من أن تستحم بماء بارد تماما.

ربما أغمضتُ عينيّ قليلا. فتحتهما. كان يقف أمامي شادا وسطه بمئزر طويل يصل إلى ركبتيه. لم أره بهذا الوضوح من قبل. طوال الليل كنت أركض خلفه، وفي اللحظات القليلة التي كنا نقف فيها لنسترد أنفاسنا لم أكن أراه، بسبب الظلمة أو الخوف.. أو قد أكون رأيته على غير ما أراه الآن أمامي: شعره الفاحم المبلول مرسل للخلف فيما تتدلى خصلة منه شاقة جبهته إلى نصفين لتضيع بين عينين المسافة بينها كالمسافة بين عيني الغزال. يفترش صدره عشب أسود يتكاثر مع انحدار بصري إلى السرّة الغائبة تحت حافة المئزر.

- هل ستبقى تنظر إليّ هكذا!

المساحات الصغيرة المتبقية في وجهه والمنفلتة من أسر لحيته النابتة بفوضى تكشف نحول الوجه حتى أن العظم يوشك أن يخرج مخترقا رقة الجلد.

لم نكن نأكل كثيرا، فاصطياد (صمونة الجيش) الناشفة التي تقذف من باب القاعة أمر ليس سهلا، تبدو الأكف كرؤوس (فال) مشرعة إلى الأعلى لاصطياد أسماك طائرة، ها هو يترك أثره على هذا الجسد الناحل المنتصب أمامي ببطن منبعج إلى الداخل وساقين أشبه بقصبتين. ربما جسدي لا يختلف عنه كثيرا، كل ما في الأمر هو أنني ما أزال محتميا بهذه الثياب التي ينازعني عليها القمل.

وجدتُ صعوبة في النهوض. كان جسدي مهشّما. ترى من أين جاءتنا تلك القوة التي اندفعنا بها! الليل كله ونحن نركض وكأن يدا خفية ترفعنا عن الأرض وتطير بنا بعناية بين جذوع النخل المتعانقة.

حين كنت أجر قدميّ إلى الحمام اتجه هو إلى المطبخ ثم وقف قبل أن يدخل ليقول لي: (ثيابك هذه ضعها في الكيس.. ستجده في الزاوية)، بعدها دخل. على ظهر الباب وجدتُ (دشداشة) بلون الصباح وملابس داخلية بيضاء تتدلى، بجنب منشفة متوسطة الحجم، من ذيول مسامير ناتئة. تحت صنبور الماء، الماد عنقه بجرأة عبر جدار الطين، كان البخار يتصاعد من قدر الماء الساخن. بجانبه (سطل) نايلون فارغ تستقر في قعره (طاسة) من (الفافون). أزحت القدر جانبًا لأضع (السطل) تحت فوهة الصنبور الذي بدأ الماء ينساب منه ضعيفا بعد أن فتحته. الضوء المتسلل من النافذة الصغيرة المطلة على باحة الدار جعل الرؤية في الداخل ممكنة. في الزاوية.. كانت ثيابه قد سبقت ثيابي إلى كيس من القماش يشبه كيس طحين فارغ.

رفعت عن جسدي قذارة الفترة الماضية. أتذكر أني تحممتُ آخر مرة هناك، في بغداد، قبل أن تحملني سيارة نقل كبيرة باتجاه الجنوب الملتهب.كنت أذهب يوميًّا إلى كراج النهضة لمعرفة آخر الأخبار من القادمين. (البصرة سقطتْ).. قال لي أحدهم وهو يجر قدمين متورمتين وجسدًا ضائعًا في (دشداشة) متسخة ترتفع كثيرا عن كاحليه. (خلعنا ثيابنا العسكرية وأعطونا هذه. تعبنا في الوصول. جميع الطرق مقطوعة. الجسور كلها ضُربتْ.تنقّلنا في سيارات الحمل الكبيرة حينا.. وأحيانا نسير أو نقفز على ظهر أي شيء يدب. ها أنت ترى قدميّ). وتركني متجها إلى بوابة المرآب الكبيرة.

كانت المرة الثانية التي أحاول فيها الوصول إلى الجنوب المنتفض. في الأولى اتجهنا، أنا وعسكري آخر زميل لي، إلى الديوانية حيث يسكن هو. قضيتُ معه ليلة طويلة مزقها الرصاص والترقب. أيقنتُ أنه ليس بإمكاني الوصول من هناك فعدنا، في الصباح، إلى بغداد التي كانت تخلع عنها وشاح السلطة الهاربة حتى أن الأخ الأكبر ترك جدارياته المنتشرة في تقاطعات الطرق.. مداخل الأبنية الحكومية.. وبوابات المدارس، وحده، نصب الحرية الخالد، ينبسط أمامك، وأنت تعبر الجسر إلى ضفة بغداد الأخرى، يطالعك الرجل الذي فتح بيدين من الصخر قضبان زنزانة طالما سجنت وطنا بأكمله. بقيتُ أتصفح وجوه القادمين، أصطاد من هذا كلمة.. صورة من تلك الأجساد المنهكة من مسيرة أيام بين بقايا جثث حصدتها القذائف وأخافها ما حصل، وها هي تتركك دون أن تبوح لك بكل شيء.

كنت أحلم بالوصول إلى هناك، (ولكن الطرق ما زالت مغلقة).. هكذا قال لي رجل يملك سيارة نقل كبيرة كنت ألتقيه في المقهى الذي لا يبعد كثيرا عن محل إقامتي، كان ينوي، هو الآخر، التحرك جنوبًا، (ربما غدا أو بعد غد.. لا أدري. سأخبرك عندها لتذهب معي. ولكني، كما تعلم، لن أصل البصرة، سأوصلك إلى الكوت وتدبّر أنت أمرك بعدها). ولمّا أخبرني أنه سينطلق غدا صباحا.. طرت. كانت الشمس قد زالت لتوّها. بحثت بين جدران المبنى، الذي لم يكتمل بعد، عن زاوية تحتلها الشمس، سحبت خرطوم الماء إلى هناك لأستحم تحت خيمة سماء ناصعة. حرارة الفرح أنستني برودة الماء.. كان هذا آخر عهد جسدي به قبل أن يتشرب دفأه الآن.

حين خرجتُ وجدته ينتصب أمامي بخدود بدت كحفرتين على جانبي وجه مضيء، ومع ذلك.. كنت أجد ألفة غريبة تشع منه.

- هل ارتحت الآن؟ أعرف أنك ما زلت تعبا. تعال لنأكل لقمة ثم سأدعك تنام.

اتجهتُ إلى الحصيرة المفروشة بجانب الجدار. ولما جلستُ وضع أمامي (صينية) حملها من عتمة المطبخ. وقتها شعرت بجوع شديد يمزق أحشائي. جلس هو أمامي في حين جلستْ أمه بجنبه واضعة أمامها عدة الشاي.

- كنتُ أعلم أنك ستأتي.

جاءنا صوتها هادئا.. مطمئنا.. واثقا مما يقول. كانت، وهي تحدثنا، تضع السكر، بيد لم يفارقها الارتجاف، في كوبين من الزجاج، ثم حملت إبريق الشاي وسكبت قليلا مما فيه في علبة صفيح صغيرة فارغة قبل أن تبدأ بصبّ الشاي في أحد الكوبين. بخاره المتصاعد يصل أنفي ليذكرني ببعض ما فارقته طوال الفترة الماضية.

- كنتُ أعلم أنك ستأتي. رأيتك أمس حين أشعلتُ التنور لأجهز الخبز. رأيتك هناك.. في داخله، تدفع النيران عن جسدك بيديك ورجليك، ثم انسللتَ بصعوبة عبر الفتحة الصغيرة أسفل التنور لتقف أمامي وأنت تلهث. بقيتُ الليل كله أنتظرك. أنت لم

تطرق على النافذة.. بل طرقتَ على أذني، لقد وضعتها هناك. كلْ.. كلْ يا ولدي، لا تستح مني. أنا مثل أمك.

وكنت قد أكلت دون أن أفكر في ذلك. بعد أن حمل (الصينية) إلى المطبخ عاد ليغسل يديه تحت حنفية الخزان الموضوع في باحة الدار. تبعته. بعدها قادني إلى إحدى الغرفتين مشيرًا إلى سرير من الخشب في زاوية الغرفة البعيدة عن الباب:

- بإمكانك أن تنام هنا. أما أنا.. فعلي تدبّر أمر خروجنا هذه الليلة، فأسماؤنا وعناويننا عندهم. هل ستذهب معي؟

(سأذهب).. هذا كل ما قلته له، فليس لدي خيار آخر. سيصلون إلى بيتنا بسهولة. لا أعرف ما الذي سيحصل لهم وقتها. وعندما احتواني السرير ثقلث عيناي فلم أجد بدًّا من إطباقهما لأغيب.

(٤)

لم يكن يصلنا من البحر غير رائحته المتسللة عبر نافذة صغيرة مشرعة. كان يمتد، في مكان ما يبدو غير بعيد، في الظلمة المطبقة على كل شيء في الخارج. ما زال الجسد يعاني بقايا ألم الطريق الطويل دون أن يجد متسعا من مكان يضطجع فيه أو، على الأقل، يمدّ رجليه أمامه.

الغرفة.. هي ليست غرفة: باحة بطول قامة رجل بباب من الصفيح ونافذة يتيمة اقتادنا إليها، نحن العراقيين الستة، وسط عدد كبير من أفارقة، لم أكن أعرف لغتهم، ذهب بهم إلى سرادق منصوب في الظلمة الحالكة مما يجعله يبدو كحيوان خرافي تتفتق عنه الظلمة.

- ستبقون هنا حتى يكتمل العدد ونرتّب أمورنا مع دوريات الساحل. الدولة، هذه الأيام، تفتح عيونها على سعتها بحثا عن المهربين، دورياتهم تجوب السواحل والمزارع المطلة على البحر، ولذلك عليكم أن تبقوا هادئين. في النهار غير مسموح لكم بالخروج من هذه الغرفة، وإذا أراد أحدكم أن (يسبّس) فليكن وجهه إلى الجدار. كلكم عراقيون؟
- كلنا. (أجاب أحدنا).
- الكثير من أساتذتي كانوا عراقيين. أنتم لكم معزّة خاصة ولذلك عزلتكم عنهم. أنتم هنا بمأمن، هؤلاء (العبيد) لا يمكن الاطمئنان إليهم، كلهم مسلحون. سأمرّ عليكم لأرى احتياجاتكم.

ثم تركنا وابتعد. صوت خطواته، وهو يطأ أوراق الأشجار المتيبسة التي تمتلئ بها الأرض، بدأ يخفت تدريجيا بعد وقت ليس بالقصير من ابتلاع الظلمة لجسده.

بدأت العيون تعتاد على الظلمة. كل وجه خائف يبحث عن ملاذه في وجه آخر أكثر خوفا منه. الأجساد تلتصق بالجدران ثم شيئا فشيئا تنثني الأرجل، ترتاح الهياكل المتعبة على الأرض، ثلاثة على كل جهة مغلفون بالصمت الذي مزقه صوت أحدنا:

- مثانتي تكاد تنفجر.

وقف مرة أخرى، ربما، ليعطي مثانته فرصة للاتساع ولينظر عبر النافذة عن مكان يستطيع أن يبول فيه. لم يخطر ببال أحدنا أن يسأل الرجل، قبل أن يغيب، عن شيء كهذا. بقي يرفع قدما ويضع أخرى قبل أن يأتيه الفرج على لسان الشخص المتربع في الركن الأبعد عن الباب:

- لا تنتظر كثيرا، الحقل واسع أمامك. ابتعد فقط وبل في أي اتجاه شئت.

كانت يداه، وهو يتحدث، تبحثان في جيوبه عن شيء تبيّن، حين أخرجه، أنه علبة سجائر وقداحة، بعدها استدار ليواجه الجدار قبل أن يطلق لهب قداحته ليشعل سيجارته.. ولينير جانب وجه يندفع فيه الأنف بعيدًا إلى الأمام.

حسن أنه يوجد حقل هنا.. وباب من صفيح، مفتوح على الدوام، يطلقك إلى فضاء غير متناه. لستَ مضطرا للوقوف عند الباب الحديد الموصد لاصقا وجهك بالجزء المشبّك منه علّ شرطيا يمرّ فتتوسل إليه ليخرجك. بغير ذلك.. ستقضي حاجتك، وأنت مقرفص عند الباب، في كيس نايلون، يناوله لك أحدهم ثم ينصرف بوجهه عنك، لتربطه بعدها بعناية وتضعه مع كومة النفايات المتراكمة عند الباب، من الداخل، والتي تبقى رائحتها متشبثة فينا حتى بعد أن نخرجها في الصباح.

ليس بعيدا.. كان صوت اختراق البول المتدفق لكومة ورق أشجار متيبس يصلنا بوضوح مع بعض من رائحته. بعدها عاد وكأنه تخلص من هم ثقيل. سأله، الشخص المتربع في الركن، بعد أن نفث سلسلة دخان بقي يراقبها ترتفع لتغيب في طريقها إلى السقف:

- لِمَ لم تبتعد أكثر قليلا؟ إذا بقيتم تتبولون قريبا من الغرفة فستخنقنا رائحة البول قبل أن نصل ساحل البحر.
- ألم تسمعه يطلب منّا أن لا نبتعد كثيرا.
- ليس عليك أن تصدق كل ما يقوله هؤلاء.

قال ذلك ونهض، بين أصابعه.. ما زالت بقية سيجارته مشتعلة، رمى بها خارج الغرفة ووطأها بقدمه وهو يخطو خارجا ليغيب شيئا فشيئا في الظلمة الممتدة خارجا. انتظرناه يعود، ربما كان آخرون بحاجة إلى التبول أو التغوط، ولكنه لم يعد. كل شيء في الخارج يبدو هادئا كهدوء مقبرة. (تأخّر).. قال أحدنا، (ترى أين ذهب)! لم يجبه أحد، فلا أحد منا يعلم حقيقة أين ذهب. (لا أستطيع انتظاره أكثر. سأخرج لأبول). كنّا نسمع صوت حذائه يبتعد ممزقا سكونا يغلف الروح. همهمة متقطعة تصل إلينا، من السرادق الكبير الجاثم هناك، أعقبها صوت رجل يصرخ آمرا الجميع بالسكوت. تتراجع الأصوات أمام زحف السكون مرة أخرى ثم يهدأ كل شيء خلا أصوات أقدام تقترب. كان الاثنان قد عادا.

لم يسأله أحد أين كنت، ولكن العيون كلها كانت تلتهمه بحثا عن أسباب تأخره.

- مَنْ منكم حاول الهرب عبر البحر من قبل؟

كان يستطلع الوجوه، وإذ لم يجبه أحد أضاف:

- إذن هي تجربتكم الأولى، ولذلك تبقون هادئين.. منتظرين وكأن يدا ستحملكم من هنا، في هذا الليل، وتلقي بكم في جزيرة (لامبيدوزا) لينتهي كل شيء! ليس الأمر كذلك. يبدو إنني أكثركم خبرة. أمامكم وقت انتظار قد يطول أياما. إنها المرة الثالثة التي أكون فيها هنا، لا أقصد هذا المكان بالذات، أعني قريبا من البحر، تصلني رائحته، ويمتد قلبي إلى ما وراءه، ولكن جسدي ما زال هنا، محشورا بينكم في هذه الغرفة التي تكاد ركبنا فيها أن تتلامس حين نجلس. لو كان الأمر يتعلق بما يدور في الرأس لكان سهلا. هل يدور في رأس أحدكم أن الشرطة قد تداهمنا في أية لحظة؟!

لم يجبه أحد. غير أنه زرع في العيون قلقا جعلها تهرب إلى الخارج لتصطدم بالظلمة قبل أن تعود إلى محاجرها ناظرة إليه وكأنها تستنطقه. وعندها أضاف:

- نعم.. يجب أن تفكروا في ذلك. لا أريد أن أخيفكم. ولكن أمرا كهذا قد يحصل، وقد حصل معي في المرة الثانية التي كنت فيها قريبا من البحر.

عادت يداه، مرة أخرى، للبحث في جيوبه عن علبة سجائره على ما يبدو، وحين أضاء اللهب بعض فضاء الغرفة لم يكن وجهه إلى الجدار.. كان يواجهنا.. وكانت عيوننا تغوص فيه:

- ما قلته لكم قد يحصل. إنها الحرب.. لا أجد توصيفا أقرب لما نحن فيه الآن وكأننا نستعد لشن هجوم على العدو. الخطة أصبحت معنا.. وها نحن ننتظر أمر الانطلاق فقط. أنتم لا تعرفون الحرب.. لا أظن أن أحدا منكم خاضها يوما أو وصلت إلى

أنفه رائحة الموت التي تحملها. حين يكون جسدك مستعدا، بكل عدته، للانطلاق إلى الأمام.. يكون رأسك مشغولا في البحث عن طريق آمن يوصلك للخلف، يخلصك من أنياب موت غير مبرر، يلقي بك إلى حضن أمك.. إلى جسد امرأة، أية امرأة، تشعر معه أنك ما زلت حيّا ترزق، وأن القذائف كلها.. والرصاص الذي سمعته يئزّ.. كل ذلك قد أخطأك، وها أنت حي في مكان ما، في بيتك ..بيت دعارة.. مشرب رخيص.. مقعد منزو في حديقة مهملة.. لا فرق.

النار التي وصلتْ أصابعه هي فقط ما جعلته يسكت لما انتفضتْ يده لترمي بقايا سيجارته بوجه الشخص الجالس أمامه. نفض، هذا الآخر، بقايا الجمر والرماد المبعثر على ثيابه. (آسف).. قال له.. ثم أضاف:

- أنتم هنا الآن.. تنتظرون اللحظة التي تلامس فيها أقدامكم مياه البحر، وربما بعد دقائق أو ساعات ستهربون بعيدا عنه، سيأتي من أوصلكم إلى هنا وحشركم في هذه الغرفة.. هو ذاته من سيقول لكم: تفرقوا.. لقد كشفنا! وقتها سيكون كل هذا الأفق المتسع ضيقا في عيونكم، تختلط سيقانكم وأنتم تركضون، ولكن إلى أين!؟ هذا ما ذهبتُ أبحث عنه.. الطريق إلى خارج هذه المتاهة حين يصلكم الصوت لتتفرقوا.. أو لتبقوا في أماكنكم فقد أحيط بكم، لا فرق، هو بالنسبة لي صوت واحد، وربما تطلقه حنجرة واحدة، إذا حصل ذلك فاتبعوني، لقد طفتُ في هذه المزرعة قبل قليل وعرفت الطريق الذي يقود بعيدا عن الشارع الرئيس عبر بوابة خلفية هناك.. في طرف المزرعة البعيد. يجب أن تفكر في طريق الهرب حتى وأنت تعيش انتصارك، ولكننا الآن سنكون أخفّ قليلا، لا أسلحة تثقل أكتافنا وتُسأل عنها حين نعود.. لا (بساطيل) تشد قدميك إلى الأرض وتعيقك عن الركض.. ولا صفّ من ذوي الرؤوس الحمر ينتظرك هناك ببنادق مشرعة يتهمك بالخيانة في حين أنك، وبرغم كل الخوف الذي يتملكك، تستطيع أن تلمح بريق الشمس على أحذيتهم اللامعة.

يصمت قليلا فيزحف السكون، مرة أخرى، عبر ثقوب الجدران والبوابة المشرعة فيما تطلّ رؤوس منه أسفل النافذة وكأنها تستعد للقفز إلى الداخل. أشعل سيجارة جديدة دون أن يدير وجهه ناحية الجدار، وبعد أن سحب منها نفسا عميقا عاد للحديث.. وعاد صوته، مع الدخان الكثيف الذي يطلقه، يطرد بعض أجزاء السكون التي تسللت إلى المكان:

- كما قلت لكم: ربما يطول انتظارنا هنا أياما، وإذا بقيتم ساكتين هكذا فسيقتلنا الخوف. قد يقول بعضكم: كيف يستطيع هذا الرجل أن يتحدث بكل ذلك ونحن في ظرف كالذي نحن فيه؟ ولكم الحق.. فأنا أشغل رأسي بالحديث لأمنعه من التفكير فيما يدور برؤوسكم هذه اللحظات، أحاول تصبير النفس.. جعلها تشعر أن البحر ما زال بعيدا مع أن رائحته قريبة.. تماما كالموت الذي يحصد رفاقك واحدا واحدا وأنت تهرب من أمامه، تختبئ حتى وراء جثثهم التي كانت، قبل لحظات، تحدثك، تشاركك هواء الملجأ الفاسد. لا أدري لِمَ كلما حاولت الانطلاق بقيتُ مربوطا إلى الحرب.. كطائرة ورقية تحلق بعيدا ولكن خيطا واهنا يربطها بالأرض لا تستطيع منه فكاكا! ولكن لا بأس، فللخيبة، أحيانا، طعم آخر، ليس طعمها هي.. ربما طعم التخلص منها، لا أدري.. سأحدثكم وأنتم تحكمون. اعذروني إن كان كل حديثي مرتبطًا بالموت، أعرف أنه لا يناسب ما نحن فيه الآن، ولكني سأنفذ منه إلى الحياة. لن أحدثكم عن الجثث التي عثرت بها قدمي وأنا أركض، لأنك إن قفزت فوق واحدة وقعت على أخرى.. عن الأشلاء المتناثرة أو المحترقة داخل عرباتها

وناقلاتها، سأحدثكم عن السماء.. كم هي واسعة وأنا أنظر إليها من على السطح.. سطح الدار. كان الوقت ظهرا، ومع إني كنت قد أصبحت بعيدا عن الحرب وخلعت كل ثيابها.. إلا أن رأسي بقيت تضج بأصواتها، وأنفي برائحتها، لم استطع النوم فصعدت إلى السطح لائذا بظل قصير يرسمه جدار أقصر من قامتي كان يفصلني عن حركة أسمعها على السطح الآخر، وقفت، رأيتها تنشر على حبل متدلّ أشياء أراها غائمة.. إلا أنني كنت أراها بوضوح. (متى عدت)؟ لم اجبها. (ألا ترى هذه الثياب.. كلها ثيابي، ليس فيها قطعة من ثياب لرجل). وكان الجدار واطئا.. واطئا جدا أكثر مما ظننت، قفزته، كما قفزت على جثث كثيرة وأنا أركض لألحق بالحياة، بسهولة لأصل إلى السطح الآخر.

(٥)

مرة أخرى تستولي عليك فكرة الرحيل فتحزم أمتعتك، ولكنك لستَ مجبرا هذه المرة، بل مخيّر.. ولكن بخيار واحد وهو أن ترحل، وإلى مكان واحد لا يسعك الذهاب إلى غيره، هل تسمّي ذلك خيارًا!؟ تصفّ أمتعتك أمامك، أصبح لك متاع تفكر به حين تنتقل.. أنت الهارب (بدشداشة) أعطاك إياها الرجل الذي هرب معك بعد أن رميت ثيابك القذرة المليئة بالقمل.. هل تذكر ذلك؟

يذكرك الرحيل بالرحيل.. والليل بالخوف، والوداع بالفقد. كل مَنْ ودعتهم لم ترهم ثانية، غابوا.. أو غبت أنت، لا فرق، احرص على أن لا تودّع أحدا هذه المرة، اختفِ دون أن يشعر بك أحد، كحبة نفثالين.. تتسامى ..تبقى رائحتها قليلا ثم لا يعود يذكرها أحد.

السرير الحديديّ الذي ترقد عليه يصرّ كلّما تحركت، يبدد صوته وحشة السكون، يبعد خوف الهروب المتسلط عليك، ولكنه ليس هروبا هذه المرة، هو سفر بجواز سفر مزوّر، وأوراق دفعتَ دم قلبك حتى حصلت عليها. تتذكر هروبك الأول، رشقات الرصاص التي تطاردك. قوة خفية أوصلتك، أنت وصاحبك، إلى داره. كانت أمه تنتظره. وأمك.. ربما كانت، وقتها، تندبك.

(بإمكانك أن تنام هنا. أما أنا.. فعليّ تدبّر أمر خروجنا هذه الليلة).. قال ذلك وهو يشير إلى السرير الخشبيّ المركون في زاوية الغرفة. لم تنتظر طويلا، كان التعب يهدّ جسدك فاستسلمت لنوم قلق أخافتك كوابيسه. رأيت أنه قد ألقي القبض علينا بعد أن قادنا هروبنا إلى طريق مسدود، لم نستطع تسلّق الجدار العالي الذي يغلق نهايته، أدركنا مطاردونا وهم يضحكون.. وكنا نلهث، ألصقنا جسدينا بالجدار، تسللت سخونته إلى جسدينا المرتجفين، وحين صوبوا بنادقهم باتجاهنا وأطلقوا النار.. شعرت بالرصاص يخترق جسدي فاهتز بقوة. كانت يدا صاحبي تهزّانني بعنف:

- استيقظ. ما لك تصرخ؟

لمّا جلست وجدته بمواجهتي. أمسك كتفيّ.. وكانت أمه تخطو من باب الغرفة باتجاهي، وهي تحمل قدح ماء، متمتمة:(اسم الله وليدي. اللهم صلِّ على محمد وآل محمد). بحق.. كان فمي جافا، تناولت الكأس من يدها وأفرغتها في جوفي دفعة واحدة.. وعندها فقط استطعت أن أتكلم:

- كان كابوسا.
- أعلم ذلك. لقد أيقظتك منه بصعوبة. هل هدأت الآن؟
- اشعر أنني أفضل.
- لم يبق الكثير من الوقت. ستغرب الشمس بعد قليل، وبعد غروبها يجب أن نتحرك. البقاء هنا أكثر من ذلك سيوصلنا إلى أيديهم بسهولة. لقد شكلوا مجموعات لتفتيش البيوت وقد يصلون إلى هنا في أية لحظة. كل ما أنتظره هو أن يهبط الظلام حتى نستطيع التحرك بأمان أكثر.
- إلى أين؟
- إلى ضفة النهر الأخرى.. ومنها إلى إيران. إذا استطعنا بلوغ الضفة الثانية بأمان سيكون خروجنا سهلا، فلا سلطة لهم هناك بعد، كما إن الإيرانيين سيستقبلوننا.. لي معارف هناك وسأحاول الاتصال بهم إذا وصلنا.

لم ينتظر قرص الشمس طويلا، ابتلعه الأفق بسرعة تاركا الظلام يجد طريقه بين أشجار النخيل بيسر ملتهما كل شيء ومخلفا الكوخ في ظلمة مطبقة كان ضوء السراج المنفلت من لسان دخان طويل يبدد بعضا منها.

- سنخرج الآن.
- ليس الآن.

قالت أمه.. وأضافت:

- ما زالت هناك بقايا ضوء في الخارج. كما إني كنت قد هيّأت لكما لقمة. الله وحده يعلم ماذا سيحصل. اجلسا هنا وسأحضرها لكم. كما إني أريد أن أملأ عينيّ منك قبل أن تغيب.

كان الطريق طويلا. صوت حفيف سعف النخل يبعث في النفس هدوءا لا يلبث أن يهرب مذعورا أمام أصوات قذائف بعيدة يبدو أنها تتساقط على مركز المدينة. كنا نسير باتجاه يعرفه هو، وأنا أتبعه. أحيانا كنت أركض حتى أستطيع اللحاق به. يلتفتُ إليّ:

- لم يسيطروا على مركز المدينة تماما بعد، هناك بعض الجيوب ما زالت تقاوم. ولكنهم سينتهون. سينتهي بهم الأمر إلى حيث كنّا قبل أن نهرب.. أو إلى حيث نحن متجهون الآن.
- هكذا تظن؟
- ليس ظنّا. جميع من التقيت بهم هذا الصباح، وأنا أتدبر أمر خروجنا، كانوا محبطين، يشعرون أن العالم كله خذلهم. وهذا ما حصل فعلا.

لم أجبه. صورة أمه وهي جالسة أمامنا، ونحن نتناول العشاء قبل أن نخرج، ما زالت مرسومة أمام عيني، كانت تجفف عينيها بطرف فوطتها. سألته:

- الرجل الذي يعبّركم.. هل تعرفه؟
- نعم يا أمي.. أعرفه. لا تخافي. ما زال هناك من يمكن الوثوق بهم.
- حسنا يا ولدي. اذهب. (بالعربان ولا بالتربان).

وحين عانقتنا على الباب كان جسدها يهتز وعيناها تفيضان. ابتعد هو قبلي. تبعته قبل أن يغيبه الظلام. وكما تفعل كل أمهاتنا حين نذهب بعيدا.. سكبت خلفنا (طاسة) ماء لكي نعود يوما ما. التفتُّ إليها.. كانت شبحا مهدودا يقف وحيدا بباب دار مظلمة. لوّحتُ لها بيدي ثم استدرت راكضا كي ألحق بصاحبي.

(٦)

في ساحة واسعة تتفرع منها طرق عدة أنزلني:

- هناك على الجهة الأخرى.. الطريق التي توصلك إلى البصرة. أترى الأشخاص الواقفين هناك؟ قف معهم. لا تتوقع الحصول على تنقل مريح. اصعد في أية سيارة تتوفر. الأجواء، كما تعرف، مشحونة ولا نعرف ما الذي سيحصل غدا.

شكرته وأغلقتُ الباب ثم لوّحتُ له بيدي وهو يبتعد.

على الجهة الأخرى من الطريق كان الأشخاص الواقفون يراوحون في أماكنهم لطرد التعب الذي بدأ يتسلق أجسادهم. كانوا أربعة واقفين فيما يجلس الخامس على الأرض محتضنا رأسه بكفيه. حييتهم. أخبروني أنه قد مضت ساعات عدة وهم هنا ينتظرون من يقلّهم. أخبرني أحدهم، بعد أن سألتهم عن الأوضاع في الجنوب، أن المعارك في البصرة ما زالت بين كرٍّ وفرٍّ، والوضع في العمارة ليس بعيدا عن ذلك.. إذ يسيطر المنتفضون على المدينة ليلا، وفي النهار تشتتهم قوات الجيش.

ونحن نتحدث.. وقفت سيارة نقل كبيرة، أشار لنا الشخص الجالس بجنب السائق لنصعد في الخلف، تسلّقنا حوض الحمل على عجل. ولما أخذنا أماكننا وانطلقت بنا أضاف الرجل:

- أعتقد أن الأمر سينتهي بكارثة.
- كيف؟ (سألته).
- المنتفضون غير منظمين، ليس لهم القدرة على مواجهة قوات نظامية، كما أن الجميع قد خذلوهم، فهم يقاتلون وحدهم بما تبقى لهم من أسلحة، وسينسحبون شرقا باتجاه الحدود.. هذا ما أظنه.

كان الطريق طويلا.. خاليا إلا من سيارات تمرّ على فترات متباعدة ثم يبتلعها السراب. بقينا صامتين بانتظار أن نصل إلى مكان ما، تمسح عيوننا الأفق من كل جهاته. أصبح الوقت عصرا.. وسيارة النقل تزحف، كسلحفاة هرمة، على اللسان الأسود المتعرج الطويل. عدد من بيوت قليلة تتناثر هناك بعيدا عن الطريق لا تستطيع العين التقاط أية حركة فيها فيما الأرض ما زالت محتفظة ببقايا رطوبة سببتها، على ما يبدو، أمطار قد تكون تساقطتْ خلال الأيام الماضية.

- هل تصل إلى العمارة؟ (سألني أحدهم).
- البصرة. أهلي هناك.
- وكيف ستصل! الطرق مقطوعة.. والوضع في البصرة ما زال مجهولا.
- لا أدري.. سأحاول.
- كن حذرا وابق على الطرق الرئيسة دائما.
- أنتم من العمارة؟
- نعم. وإذا أحببت تفضل معنا.
- شكرا. أفضل أن أواصل.

كان المساء قد اقترب لمّا تباطأت سرعة سيارة الحمل، نظرنا.. أمامنا، وعلى بعد مئات الأمتار، نصبت سيطرة للجيش. (ألم أقل لكم أن الأمر سينتهي بكارثة). لم يجبه أحد. أخبرنا الجنود المنتشرون في نقطة التفتيش أنه غير مسموح دخول المدينة ليلا. قضينا الليل مختبئين

بين عجلات العربات المنتظرة أو متحلّقين حول إطار أشعله أحدهم. ربما يكون النوم قد غالب عيني قليلا.. لا أدري، إلا أنني في الصباح كنت منهكا. مسحت، بمنديلي، آثار الدخان عن وجهي وأذنيّ ثم اجتزتُ السيطرة ماشيا، مثل الكثيرين، على أمل الحصول على سيارة أخرى تحملني، ولو لمسافة قصيرة، قبل أن يصادفها جسر مقطوع أو طريق مغلق.

(٧)

حين استشعر أنفي رائحة النهر خفتُ قليلا. قصرت خطواته فاستطعتُ اللحاق به. كان يتلفّتُ بحذر وهو يسير. سألني:

- هل تجيد السباحة؟
- نعم . ولكن هل سنعبر سباحة!؟
- لا. ولكننا قد نضطر إلى رمي أنفسنا في الماء. ها هو الرجل.. ينتظرنا.

وعندها فقط انتبهتُ إلى الهيكل الجاثم أسفل نخلة طويلة قريبا من جرف النهر. كان يخفي جمرة سيجارته بباطن كفّه.

- في الموعد؟
- ليس تماما. تأخرتم قليلا، والجماعة، على الضفة الأخرى، قد يقلقون.. وربما يذهبون إن تأخرنا أكثر. علينا أن نسرع.

المدُّ في أعلى مستوى له. سحب الرجل حبلا، مربوطا إلى جذع النخلة حيث يجلس، تغيب نهايته في كومة الحشائش النابتة على الجرف.. سحبه فبانت مقدمة زورق بدأ بالظهور تدريجيا.

- هيّا. لن أشغل المحرك. يجب أن نكون حذرين. سأستخدم المجداف ببطء كي لا نثير أية ضجة.

انزلقتْ قدمي وأنا أحاول الصعود فأمسكني الرجل بإحدى يديه شادا، بيده الأخرى، حبل الزورق كي يبقيه قريبا من الضفة. صعدتُ بعد صاحبي الذي كان قد سبقني بمهارة. بعدها تبعني الرجل ملقيا الحبل في بطن الزورق ومتناولا (المردي)، وحين طعن خاصرة النهر بإحدى نهايتيه ابتعد الزورق، متحاشيا كومة قصب ونفايات طافية، باتجاه منتصف النهر.

هناك في منتصف المدينة حيث أعيش.. لا يبعد النهر عن بيتنا كثيرا، مجرد دقائق قليلة تمشيها على قدميك حتى تصل إليه، هذا النهر هو ذاته.. له نفس رائحته، لطالما كان شاهدا على الكثير من جنوننا وعبثنا، كل طقوسنا، ونحن صغار، كانت تنتهي عنده حيث ننظّف أنفسنا، بعد نهار لعب صاخب، بمائه قبل أن نعود إلى بيوتنا لنغفو بانتظار نهار آخر.. هو ذاته الذي ابتلع أسرارنا، كبارا، وأخذها معه إلى البحر حتى لا يطلع عليها أحد، هو ذاته.. الذي عبرناه يوما بزورق مطاط تناوبنا على نفخه حتى تفجّرتْ (بلاعيمنا)، وفي طريق عودتنا، في المنتصف تماما، كانت باخرة تقترب، بصعوبة تمكنا من الرجوع والابتعاد عن مسارها، ولما مرّتْ عدنا لعبوره من جديد. اليوم.. ها أنا أعبره وحدي، فـ (هيثم علي طالب) ذهب ذات صباح إلى كليّته التي ما زالت واقفة عند حافة النهر تنتظر عودته.. ولكنه لم يعد.. وكان أخي قد غاب، هو الآخر، قبله بفترة طويلة.

كان السكون محيطا بكل شيء. تركتُ أذنيَّ تلتقطان صوت الزورق وهو يشق صدر النهر. كنّا نبتعد عن الضفة بسرعة. مددتُ يدي متحسسا برودة الماء، أخذت قليلا منه بباطن كفي وغسلت وجهي، أحسستُ بجمرتي عيني تنطفئان. غسلته مرة أخرى، أصبحت أرى بوضوح. كنا في منتصف النهر تقريبا. الرجل يجلس في طرف الزورق دافعا الماء بمجداف خشبيّ دون إثارة ضجة تذكر، أعطيته ظهري ناظرا إلى طرف الزورق الآخر حيث صاحبي يلتهم الجهات كلها بعينيه. الأشباح، على الضفة الأخرى للنهر، تصبح أكثر وضوحا. كان الزورق يقترب.. ومع اقترابه تتباعد جذوع النخل عن بعضها تاركة الضوء المنبعث من بنايات

بعيدة، تغيب في مكان ما هناك، يصل ضعيفا إلى عيني. تناول الرجل (المردي) مرة أخرى واقفا، هذه المرة، فاردا طوله كله:

- لقد وصلنا. الجماعة هناك.. سيأخذونكم عبر الحدود.

ألقى الحبل فتناوله رجل ملثم هبط سريعا إلى الجرف من خلف جذع نخلة ضخم فيما بقي زميله الآخر هناك. سحب الزورق إلى الضفة حتى ارتطمت مقدمته بالجرف. عانقنا الرجل.. ورأيت صاحبي يعطيه شيئا قبل أن يقفز ليتبعني.

(مرحبا).. قال الآخر الذي بقي في الأعلى مستندا إلى الجذع فيما كان زميله يكلّم الرجل الذي أوصلنا. بعدها صافحه ودفع الزورق إلى عرض النهر متسلقا الضفة ليلحق بنا.

(٨)

(هل تعلمون أني في ذات المكان الذي كنت فيه قبل أشهر).. قال ذلك الشخص الذي عاد لتوّه من الخارج بعد أن قضى حاجته قبل أن يلصق ظهره بالجدار ويلمّ فخذيه إلى صدره. ثم أضاف:(كنت شاكا في البداية، فالكثير من هذه الأماكن تتشابه، يلفها الغموض ذاته، ولكني لما خرجت للتغوط قرب الشجرة، هناك، أيقنتُ أنني في نفس المكان، فالعبارة التي حفرتها على جذع الشجرة ما زالت واضحة، قرأتها وأنا أقضي حاجتي، أربعة أشهر مرّتْ بالتمام والكمال، حتى كومة البراز التي تركتها قرب الجذع ما زالت موجودة، رأيتها متيبسة. وقتها هذه الغرفة لم تكن قد بُنيت بعد.. ولا ذاك السرادق كان موجودا. في المرة الماضية لم ندخل من الباب التي دخلنا منها اليوم.. وإنما تمّ إدخالنا من باب آخر ينفتح على طريق ترابي ضيّق، محفوف بأشجار عالية، يوصل إلى شارع يفضي بدوره إلى الشارع الرئيس. هذا ما جعل الأمر يختلط عليّ، ولكنّي متأكد الآن).

سكتَ. ناوله، الشخص الذي يجلس في الركن، سيجارة بعد أن أشعلها له ليستحثه على الحديث:

- أنت تحاول ركوب البحر للمرة الثانية إذن؟
- من هذا المكان.. نعم، وقد حاولت ذلك من أماكن أخرى. كل محاولاتي السابقة انتهت بالفشل، مرة فرحنا كثيرا عندما لاحت لنا أضواء على الساحل، توجه الزورق إليها، خيبتنا كانت كبيرة عندما تحدث معنا شخص بالعربية، كان البحر قد ألقى بنا على الساحل التونسي. قررتُ بعدها أن أبتعد عن البحر، ولكني كنت أعود كلما سمعت برحلة تجهّز.. أو كلما صار في جيبي ما يغطي نفقاتها. أتعبني ذلك فرأيت أن أهرب بعيدا، ذهبت للعمل في عمق الصحراء، الحظ وحده قادني إلى هنا، لما وصلتْ رائحة البحر إلى أنفي أسكرتني، لم أستطع مقاومة إغرائه، اتصلتُ بمهرّب أعرفه.. واستلفتُ من صديق لي بعضا من المال لأكمل بقية المبلغ. وها أنا هنا في ذات المكان، أنتظر حالما بعوالم أخرى تبعث الدفء في جسدي المرتجف، تستل منه رطوبة المواضع أيام الحروب.. الخوف الذي تتركه القذائف في نفسك وهي تمرّ من فوق رأسك، تنسيك أهلك.. أصدقاءك الغائبين.. الوطن الذي لفظك وما زلت تحن إليه، تحمله معك، تعيش ماضيك، على مرارته، من جديد. هل ستعوضك المدن التي تحلم بالوصول إليها بنسائها الفاتنات وبناياتها التي ترتفع عاليا في السماء.. هل ستعوضك عن أزقة مدينتك المتربة حيث لنساء الملتفّات بعباءاتهن السود.. جالسات على عتبات الأبواب يغيّب الكثير من حديثهن صراخ الصبية المتقافزين (كالطناطل). قلتُ ذلك من قبل لما وصلت إلى هنا، ولكن بعد لحظات الانبهار الأولى.. عدت إلى حيث كنت. أرى أبي يحملني وأخي على دراجته الهوائية إلى المدرسة، وكنّا نعود مشيا لأننا لا نملك أجرة النقل، نقفز لنرى أينا يستطيع لمس مظلات الشبابيك، نطرد الفقر بضحكاتنا. غابت عن ذهني الكثير من التفاصيل الآن، أكلتها الغربة، وأخافت الكثير منها سطوة النظام فاختبأتْ بعيدا في أقصى أعماق الذاكرة، لا تخرجها من هناك إلا الخمر.. ولحظات صفاء أفتقدها الآن. كان لنا حذاء رياضة واحد يلبسه من تكون حصته أولا، ثم نتبادل أحذيتنا في الفرصة وسط ساحة المدرسة المرصوفة بالخرسانة تحت سارية العلم تماما. أخي ذاك خرج يوما ولم يعد.. مثل الكثيرين الذين غابوا، بحثت عنه أمي في سجون البلد كلها.. ولكنها لم تجده، وما زالت تنتظره رغم السنوات الكثيرة التي مرت على غيابه، أي وطن هذا الذي يأكل أبناءه! فالكثير منهم قد مضغتهم الحروب بأضراسها، وكثيرون غيبتهم السجون والمقابر المجهولة، وها هو يلقي بمن تبقى

في المنافي! ومع ذلك نحن إليه، لا تغادر صورته أحلامنا. قبل أشهر، عندما كنت هنا، عشتُ ذات الشعور الذي أعيشه الآن، صورة الماضي سيطرتْ عليّ، ألقتْ بي طفلا وسط غابة النخل القريبة من بيتنا، ألتقط (الجمري).. أسبح في النهر القريب.. أمسك قصبتي على شاطئه.. أختبئ خلف (الخص)، وعبر فجوة أحدثتها فيه كنت أرى بواكير رجولتي كيف تتقد وأنا أراقبها، بفخذيها المشعين وصدرها الذي يشبه ثمرة كمثرى ناضجة، وهي تغسل الثياب في النهر، لعابي كان يسيل، وجهي يبدو كقطعة قماش صفراء وضعت في (الخص) لتسد فجوة فيه. مرة كنت، عبر فجوتي تلك، ألعق، مع أشعة الشمس، أجزاء جسدها المكشوفة وجسدي متخشب، أمسكتني كفّ غليظة من الخلف، الصفعة التي تلقيتها جعلت الدموع تطفر من عيني. ولم أعد إلى هناك مرة أخرى، ليس خوفا.. ولكني وجدت نوافذ أخرى أكثر اتساعا من كوتي تلك، ما كنت أراه عن بعد أصبحت ألمسه بيدي، أتحسس دفأه.. طراوته، عالم آخر وجدت نفسي فيه، ضائعا.. أو عن قصد.. لا أدري، إلا أن له الفضل في بقائي فوق الأرض حتى الآن، هذا ما أخبرني به المسؤول الأمني للمنطقة عندما تم استدعائي، كان لا بد من الذهاب، إذ لم يكن بوسعي الهرب.. فهم في كل مكان، كما إنهم لا يستدعون أحدا بهذه الطريقة عندما يريدون اعتقاله. ومع أني كنت أعرف المبنى الذي يشغلونه.. إلا أنني بقيت أتسكع في الأزقة القريبة منه حتى هدأت قليلا. صعدتُ السلم خلف رجل قادني إلى غرفته، ومن خلف طاولته اللامعة.. المكتظة بالملفات وبثلاثة أجهزة هاتف على يمينه قال لي: (تعاون معنا. إذا جاءكم أحد يسأل عن أخيك.. من أصدقائه فاتصل بنا. هذا رقم هاتفي المباشر). ناولنيه بعد أن كتبه على قصاصة ورق اقتطعها من ورقة كانت بيده. كم مرّ على ذلك الآن؟ ربما عشرون عاما أو أكثر وها أنا أعيشه وكأنه حصل البارحة.. وسأبقى أعيشه حتى لو كنت في الجنة، أعلم ذلك، أما إذا استقرّتْ جثتي في قاع البحر.. أو في مكان ما تحت الأرض.. فلا أعرف إن كنت سأذكره أم لا.. لأني لم أجرب ذلك بعد).

حين سكتَ.. شعرتُ بمثانتي تكاد تنفجر فخرجت لأبول..أو لأهرب محاولاً الخروج من البئر العميقة التي ألقاني فيها.

(٩)

حين بدأ الضوء، الذي يكشف الطريق لقرص الشمس، يبدد الظلمة.. كنا نسير وسط بيوت متباعدة، نسير ببطء، بقينا الليل كله نتبع الرجل دون أن نسأله، إلا أن انكشاف معالم الطريق شجّع صاحبي لسؤاله:

- أين نحن الآن؟
- هذه أطراف المحمّرة.. أو (خرمشهر) كما يسمونها هنا. أعرف أنكم متعبون. لقد قدتكم عبر طريق طويلة لنتحاشى نقاط التفتيش الكثيرة المنتشرة على الحدود. أمس، في الصباح، تجوّلت في المنطقة كلها لأحدد أماكن تواجدهم. أنتم بأمان الآن.

كانت الأرض قد تركت الشمس ترتفع فوق أفقها بمقدار ذراع حين وقفنا أمام أحد البيوت. فُتح لنا الباب بعد طرقه ودخلنا إلى غرفة طويلة مفروشة ببسط رخيصة ووسائد موزعة على الجدران. جلسنا. تحدث الرجل إلى مضيّفنا بالفارسية فلم أفهم منه شيئا فيما يبدو أن صاحبي كان يستطيع فك شفرة الكلام قليلاً :

- هل قال إنه سيأخذنا إلى مركز اللاجئين؟
- نعم. ذلك أفضل لكم. ستزودون بوثائق خاصة بواسطتها يمكنكم التحرك بحرية أكثر.

بعد أن رفع (صينية) الإفطار من أمامنا أحضر لنا أغطية، كنا بحاجة للنوم، أو كنت أنا كذلك بينما اكتفى صاحبي بأن أسند ظهره للجدار ومدَّ رجليه أمامه. أنزل الستارة على النافذة الوحيدة فحلّتْ ظلمة محببة ارتخى معها جسدي فوضعت رأسي على الوسادة.

بقايا الضوء تمكنني من متابعة تفاصيل الغرفة.. صورة كبيرة لـ (قائد الثورة) تتوسط الجدار المقابل لي وقد أحيطت بإطار فاخر يختلف كثيرا عن إطارات الصور الأخرى الموزعة على الجدران بفوضى: آيات قرآنية.. مناظر طبيعية.. لوحات رخيصة من تلك التي تباع في الأسواق.. فيما كانت صورة لرجل، بكوفية وعقال، معلقة فوق رأسي تماما.

(١٠)

بحلول النهار.. سمح لنا بالدخول إلى مدينة العمارة. سرنا على الطريق الرئيس الذي يقود إلى داخل المدينة. سيارات الجيش وحدها تسير، كانت تجتازنا مسرعة وهي محملة بجنود بوجوه ذابلة. حينا اقتربنا من داخل المدينة رأيت حجم الدمار الذي حلّ بها، لم يبق بيت واحد على الشارع دون أن تطاله قذيفة، الأبواب مشرعة مما يعطي انطباعا بأن الدور خالية. جثتان، على يمين الطريق، كانت الكلاب تنهش بطونها.. أنا رأيت ذلك، ومشيت، كالآخرين حتى دون أن نلقي حجرا لنبعد الكلاب عنها.. مسرعين كنا وكأننا نهرب من مصير مشابه، لا أتذكر أني رأيت شيئا بعد ذلك.. أو أن كل ما شاهدته، بعدها، لم يستطع مسح تلك الصورة من ذاكرتي. أسير.. بقيتُ أسير دون أن تكلّ قدماي أو يتسرب التعب إلى جسدي. لم نكن نتحدث، يغلفنا الصمت.. أو ربما يعقد الخوف ألسنتنا. سيارة نقل كبيرة تعطّفتْ علينا وأوصلتنا إلى مفرق (أبي عجل)، سرنا مبتعدين عن المنطقة التي يتجمع فيها العسكر على أمل الحصول على سيارة أخرى تقربنا من البصرة.

البصرة.. كيف هي الآن؟ لا أعتقد أنها أحسن حالا من المدينة التي مررت بها، بل ربما أسوأ بكثير، فمنها انطلقت شرارة الانتفاضة. إنه قدر تلك المدينة التي يشطرها النهر.. تغلق إحدى عينيها وهي تغفو على ضفة الخليج وتراقب قدرها بالعين الأخرى.

اجتزنا نقاط تفتيش كثيرة موزعة على الطريق الرئيس المتجه جنوبا، لا شيء غير أشباح أجساد تسير في كل الاتجاهات.. إلى كل مكان.. وليس إلى مكان بعينه. أنزلتنا السيارة مرة أخرى. سرنا ما شاء الله لنا أن نسير. نتشبث بأي عجلة تمرّ. نلقي أجسادنا في حوض الحمل. ثم ننزل مرة أخرى.. لنسير.

على مشارف البصرة.. لم تسمح لنا نقطة التفتيش المزروعة هناك بالمرور فانعطفنا يمينا. كان الوقت عصرا.. قبل المغرب بقليل، وكنا مجموعة تحثّ خطاها باتجاه حيّ قريب. (أعرف طريقا آخر يمر من هنا.. بين هذه البيوت)، قالها أحدنا وانفصل مسرعا ليتبعه أربعة أو خمسة أشخاص كنت أحدهم..ولكني تخلّفت عنهم قليلا. كانت منازل القصب التي نسير بينها متقاربة تترك بينها أزقة ضيقة. انعطفوا قبلي، وحين تبعتهم لم أجد أحدا، كانت الطريق خالية.. والليل قد بدأ زحفه طاردا بقايا النهار. خفتُ.. نعم خفت. عدت أدراجي إلى الحي الذي تركته خلفي. بعض الأشخاص تطل رؤوسهم الملثمة من المواضع المحفورة بين النخل. عدت راكضا.

على جانب طريق مرصوفة.. سدة ترابية اختفى خلفها بعض ممن كانوا يسيرون معنا. جلست معهم، إلا أن صوت رصاصة مرّتْ بالقرب منّا جعلتنا نتفرق إلى داخل الحي. (يبدو أنهم رصدونا).. قال شخص وهو يركض.

لم نجد باب بيت مفتوحًا. كان المساء قد حلّ. أحدهم قدّم إلينا بعض التمر قائلا: (هذا فقط ما نملكه).. واختفى. بتنا تلك الليلة في حظيرة للحيوانات عند مدخل أحد البيوت. وكنت قريبا من باب الحظيرة، كلما يوشك جفناي على الانطباق أرى كلبا يقترب مني محاولا نهشي، ذكرني ذلك بحلم طالما رأيته في طفولتي.. كلب أسود يقول لي: (أريد أن آكلك.. من زمان ما أكلتك)، إلا أن هذا الكلب لم يكن أسودَ، كان مبقعا، ربما أخذتُ مكانه في الحظيرة. وبقيتُ كذلك حتى الصباح. ربما نمت لبعض الوقت ورأيت حلم طفولتي ذاك.. لا أدري.

(١١)

الوقت من العصر آخره.. لم نعد نرى الشمس. ريح خفيفة كانت قد بدأت تهب حاملة بعضا من رطوبة البحر ورائحته ومطلقة، مع الأشجار الكثيرة المنتشرة حولنا، لحنا بدأ بالتلاشي أمام زقزقة الطيور المتعالية شيئا فشيئا. عبر النافذة الوحيدة يلقي، ما تبقى من ضوء، ظلالا قاتمة على الوجوه فتبدو مظلمة.. غائبة في عوالم أخرى بعيدة عن هنا كل البعد. وحده، الرجل الذي استوطن الركن، كان وجهه مضاءً بفعل قداحة أشعلها ليلهب طرف سيجارته.

في الصف المقابل.. أخرج رجل جواز سفره وراح يتصفحه، سقطت منه مجموعة صور التقطها الجالس بجانبه:

- هل هم أولادك؟
- نعم. البنت، كما ترى، هي الكبيرة.
- وأين هم الآن؟
- كانوا معي هنا. أخرجتهم من هناك بصعوبة. أنت تعلم كم يكلّف إخراج ثلاثة وأمهم. وكان يجب أن يسافروا بصحبة محرم.. فجاء أخوها لأني لا أستطيع الذهاب، مواليدي دُعيتْ لخدمة الاحتياط قبل مدة، وإذا ذهبت فلن اخرج قبل أشهر عديدة ستكون خلالها تأشيرة الخروج والعودة قد انتهت.. هذا إذا تمكنت من الخروج. أرسلتُ في طلبهم فجاءوا كلهم. أخو زوجتي، وقد طاب له البقاء هنا، بقي بعد أن أمّن له بعض الأصدقاء عملا لا يكسب منه الكثير.. ولكنه يسد حاجته. وقتها لم أكن أفكر بالبحر.. ولا بأي مكان آخر، فعالمي أصنعه هنا حتى تتغير الأوضاع هناك ونعود، لم أكن أحلم بأكثر من ذلك. أسرتي إلى جانبي.. وأنا أعمل مدرسا في ثانوية مهنية، لا أوفّر الكثير.. نعم، ولكني مرتاح هكذا. فكرة الهجرة عبر البحر كانت من عنده بعد أن التقى بكثيرين سافر بعضهم بهذا الطريق. قلت له إنني لا أستطيع المجازفة بامرأة وثلاثة أطفال أضعهم على ظهر زورق متداع. ولكن الحديث الذي كان ينقله عن الذين وصلوا هناك مغر، استطاع أن يقنع أخته، ولنتُ أنا تحت إلحاحهما معا. (أمّن مستقبلا لعائلتك. هل ستبقى هنا العمر كله؟ ربما سنة أو اثنتين وينهون عقودكم جميعا .. ماذا ستفعل وقتها والوضع هناك ما زال كما هو؟). وافقتُ.. مع أني لم أكن مقتنعا تماما. وتولى هو ترتيب الأمور.

كان الرجل، وهو يتحدث، يقرّب الصور أمام عينيه ليراها بوضوح وسط الظلام الذي فرش رداءه على كل شيء حولنا. هدأت الزقزقة ليرتفع محلها صخب من جهة السرادق تدفع الريح الكثير منه بعيدا عن غرفتنا. صخب الصمت الذي يطن في آذاننا، بعد هدوء الريح، يذيقنا مرارة قلق الانتظار. ما زال الوقت مبكرا على النوم.. والرجل الذي يحضر لنا العشاء لم يأت بعد. كان لابد من تمضية الوقت بشكل ما لطرد صفير السكون من الغرفة التي أصبحت مظلمة.

- حسنا تفعل إذ تتركهم هنا وتذهب. بعدها يمكنك أن تعمل لهم (لم شمل).
- بل هم تركوني هنا وذهبوا.. هذا ما حصل، فالمبلغ الذي كان معي لا يكفينا كلنا، كما إنني، وبصراحة، كانت عيني على مكافأة نهاية الخدمة، فذهبوا هم وبقيتُ أنا على أن ألتحق بهم بعد نهاية العام الدراسي، إذ أنني قدمت استقالتي. لقد وصلوا، اتصلوا بي من هناك، كلمني أخو زوجتي.. وأنا تحدثتُ إلى الأطفال. في آخر مرة كلمتهم فيها قالوا: تدبّر أمرك.. حاول أن تأتي كما ذهبنا. وها أنا، للمرة الثالثة، أحاول عبور البحر، ولا أدري إن كنت سأنجح، هذه المرة، أم لا. لو لم يذهبوا

لكنت حملتهم وعدت بهم إلى العراق.. نعيش هناك كما يعيش الكثيرون، فالقلق والضياع الذي أنا فيه منذ أن سافروا يكاد يقتلني.

لا يأكل أحد القلق، منّا نحن العراقيين الستة الذين لا يعرف أحدنا الآخر وقد جمعنا الظرف.. ولا نعلم، حتى هذه اللحظة، متى سنفترق.. وأين، كما يأكل هذا الرجل، فلا أظن أن أحدا منا يمتلك عائلة تنتظره بالشكل الذي تحدث عنه، على الأقل أنا لست كذلك. في آخر اتصال لي معهم أخبرتهم أني قد أغيب قليلا في عمل خارج المدينة، لم أحدثهم عن البحر حتى لا يجد الخوف طريقا جديدا إليهم غير طرقه المعتادة.

(لِمَ لا أحدثكم بالحقيقة كلها حتى لا يقع أحد فيما وقعتُ فيه؟). عاد الرجل للحديث بعد فترة صمت طالت نسبيا وكانت ضرورية، بالنسبة إليه، لاتخاذ قراره. (قد يكون لأحدكم رأيٌ يسعفني به. ففي مكالمتي الأخيرة لم أتحدث مع زوجتي، تحدثت مع الأطفال فقط، إلا أنها اتصلت بي ذات يوم لتقول لي: حاول أن تحضر بسرعة وإلا أرسل لي ورقة طلاقي. أخاف، إن أنا ذهبت، أن لا أجد أحدا حتى أطفالي).

(أكاد أختنق هنا).. قالها الرجل الذي يحتل الركن وهو يخطو، وسيجارته متوهجة بين أصابعه، خارجا من الغرفة. نهضتُ لأتبعه.. ولكني توقفت على بعد خطوات من الباب وبقيت أنظر إليه وهو يبتعد حتى غيبه الظلام.

(١٢)

ليس بعيدا عن المدينة.. في أطرافها كان معسكر اللاجئين. قادنا الرجل إلى هناك. لم يكن الطريق طويلا وكنت شاردا أتطلع حولي علّي أجد شيئا من آثار الحرب التي دارت هنا قبل سنين. سألته:

- هل وصل العراقيون هنا أيام الحرب؟
- تجاوزوا هذه المناطق كلها باتجاه الأهواز.

حين انعطفت السيارة خارجة عن الطريق الرئيس بانت أشباح مبان مقامة هناك على البعد. (في معسكر اللاجئين ستكونون بأمان أكثر. (إطلاعات) هنا عيونهم مفتوحة دائما، ووضعكم غير القانوني قد يسبب لكم مشكلة. الأفضل أن تأتوا هنا، قد تخرجون بعد فترة إذا وجدتم من يكفلكم). (أعرف البعض هنا).. قال له صاحبي مضيفا: (سأتصل بهم حالما أتمكن من ذلك).

عند بوابة المعسكر تحدث السائق مع شخص يقف هناك باللغة الفارسية. أشار إلى بناية تبدو أحسن حالا من الخيام الكثيرة المنتشرة. اتجهنا إليها. عند باب موصد كتبت فوقه كلمات باللغة الفارسية أنزلنا الرجل حيث بقينا في الخارج ودخل هو. في فترة غيابه مسحنا بأعيننا أرض المعسكر.. خيام نصبت في صفوف متوازية لم أستطع تحديد عددها، خيمة كبيرة في الوسط.. في حين تناثرت بعض قطع المباني الجاهزة هنا وهناك على أطرافه.

(أنا هنا علي طرفي.. أحفظ ذلك ولا تنسَه. قد يسألك الرجل في الداخل عن اسمي وكيف عرفتني، اسمي أخبرتك به.. بقية الأمور تحدث عنها كما وقعتْ فعلا). كانت المرة الأولى التي أسمع فيها اسمه، فعندما كنا في بيته لم تنادِه أمه باسمه مطلقا، وحين سألتني عن اسمي أجبتها، وبقيت تكرره كلما تحدثت إلي وكأنها تخشى أن تنساه، آخر مرة سمعته منها عندما قبلتني وهي تودعني عند الباب. ترى كيف هي الآن؟ هل جاءوا لتفتيش البيت؟ حين كلمته بذلك لم يجبني، إلا أن حزنا عميقا انزاح من عينيه ليستولي على قسمات وجهه كلها. (أعتذر، ولكني تذكرتها الآن، فأنا لم أرَ أمي منذ فترة طويلة، فقبل أن يلقى علي القبض كنت في بغداد، وكانت الحرب قائمة، وحين تمكنت من دخول البصرة تمّ اعتقالي قبل أن أصل إلى البيت. أعتذر منك مرة أخرى).

حين خرج، الرجل الذي قادنا إلى معسكر اللاجئين، كان معه شخص آخر بملابس عسكرية، لحية خفيفة تطوّق وجهًا يندفع منه أنف كأنف النسر. (هنا تنتهي مهمتي).. ثم ودعنا وانصرف. وبانصرافه اتجهت أعيننا إلى الرجل العسكري فكلمنا بلسان عربي طالبا منا الدخول مشيرا بيده إلى باب فتحه ودخل.. فتبعناه.

في الداخل لم يكن هناك أحد.. فقط شخص يجلس خلف منضدة تبعثرت فوقها العديد من الأوراق وقدح شاي قد فرغ نصفه، خلفه.. أعلى الجدار.. صورة لـ (قائد الثورة) وأخرى لمرشدها الحالي ، خمسة كراسي ونافذة تطلّ على باحة المعسكر، كانت مفتوحة عند دخولنا، بجانبها خزانة من حديد كانت مغلقة. أشار لنا بالجلوس فجلسنا على الكراسي القريبة من منضدته في حين بقي صاحب أنف النسر واقفا قرب الباب. حدثه بالفارسية فاحضر له مجموعة أوراق من الخزانة ثم أغلقها من جديد.

- كيف وصلتم إلى هنا؟

كان، هو الآخر، يتحدث العربية. يبدو أن صاحبي، والذي عرفت قبل قليل أنه يدعى علي طرفي.. هنا على الأقل، كان يتوقع سؤالا كهذا، انطلق يحدثه عن الأوضاع هناك، أخبره أنه تعرّف عليّ في السجن ولم يكن يعرفني قبل ذلك، حدثه بكل شيء كما حصل، إلا أنه لم يذكر له أن هناك من ساعدنا على تجاوز الحدود، أخبره أننا سرنا شرقا على غير هدى حتى وجدنا بعض البيوت المبعثرة، وعندما سألنا أخبرونا أننا على أطراف خرمشهر، طلبنا منهم أن يوصلونا إلى أحد معسكرات اللاجئين.. وها نحن هنا.

- وكيف لم يجدكم أحد من قواتنا المنتشرة على الحدود؟
- لا أدري.. ربما المصادفة وحدها هي من قادتنا بعيدا. كان الوقت ليلا، وكنا حذرين جدا فلم نصدر أية ضجة خوفا من أن تكشفنا قوات النظام. ولو وجدتنا قواتكم على الحدود لوفرت علينا الكثير من الوقت والجهد، ولكن ذلك لم يحصل. على أية حال.. نحن عندكم الآن.

كان إجراءً شكليا فقط. بدأ بتدوين بعض المعلومات عنا في الأوراق الموضوعة أمامه: أسماءنا.. أعمارنا.. أين نسكن تحديدا.. ما إذا كنا نعرف أحدا في (الجمهورية الإسلامية)، ولم أكن أعرف أحدا. أخبره صاحبي أن له أقارب هنا.. يعيشون منذ سنين، ثم أخرج من جيبه ورقة أعطاها للرجل، (هذه أسماؤهم وأرقام هواتفهم، إن كان بالإمكان نقلها إلى ورقة أخرى وإعطائي هذه.. فأنا لا أملك غيرها).

تحدث بالفارسية إلى الشخص المنتصب عند الباب ففتحه وأشار لنا بالخروج. (سيوصلكم إلى حيث تسكنون في المعسكر)، ثم التفتَ إلى صاحبي: (سنتصل بأقربائك وسنعلمك في حينه ما سيحصل . تستطيعون الذهاب).

(١٣)

مع خيوط الفجر الأولى تركنا حظيرة الحيوانات، حيث قضينا الليل، متحركين باتجاه مركز المدينة. لم يكن احدنا يعرف الآخر، فقد جمعنا الليل والخوف.. واضطرتنا الأبواب الموصدة للمبيت، محتمين ببعضنا، في زريبة عند باب أحد البيوت، لم نكن نتحدث إلا لماما.. ولم يكن أحدنا ينتظر، حين يلقي جملة أو يطرح سؤالا، أحدا يجيبه. على الطريق.. كان الكثيرون قد سبقونا، وكنا نتبعهم دون أن نفكر وكأن هذا هو الطريق الوحيد الذي يقود الجميع إلى حيث يريدون، وكان كذلك فعلا، فعندما وصلنا إلى (جسر الكرمة) وجدته قد دُمّر ولم يبق منه إلا ممر رفيع لا يتسع لأكثر من قدم واحدة للعبور. انتظرنا حتى عبر مَن سبقونا.. والآخرون القادمون من الاتجاه الآخر لنعبر بعدها منحدرين مع اتجاه الشارع الرئيس. ليس هناك عجلات تسير غير عجلات الجيش المكتظة بجنود يرتدون الخوذ ويشرعون أسلحتهم في كل اتجاه.

كان الدمار قد حلّ، والخوف يلقي ظلاله على كل شيء. كنا نسير، جماعات ومنفردين متتبعين إسفلت الشارع، البيوت المطلة عليه، كلها، لحقها الكثير من التدمير أو بعض منه.. الأمر الذي ينبئ أن مواجهات شديدة حصلت، ولكن المنتفضين غابوا، ابتلعتهم الأزقة.. أو قفلوا متراجعين لالتقاط الأنفاس أو لإيجاد مخرج آمن.

نقاط التفتيش العديدة الموزعة على الطريق لم تكن تفتش بدقة، فقد اجتزتها كلها بهوية قديمة تعود للدائرة التي كنت أعمل بها قبل دخولي الجيش. تركتُ ساحة سعد متجها إلى البصرة القديمة. كنت أسير وحيدا.. فالمجموعة التي كنت معها تفرّقتْ على طول الطريق. المشهد ذاته يتكرر.. كل شيء مدمّر. أوقفتني نقطة تفتيش للجيش الشعبي قريبا من السوق. أعطيته هويتي وأجبته أني لست عسكريا حين سألني، ولكنه لم يقتنع، فتشني.. وكان في جيبي عدد من نماذج الإجازات ما زلت محتفظا بها، حين وجدها وجه سلاحه إليّ. التفّ حولي بقية زملائه. ربطت يداي إلى الخلف وسحبت إلى عمارة على الجهة الأخرى من الشارع. دفعني أحدهم إلى الداخل بعد أن فتح شخص مسلح كان يقف هناك بابا من الحديد يفضي إلى غرفة صغيرة وقد صفعني وأنا أدخل. كانت الغرفة مختنقة بالكثيرين، وعلى العادة.. لا أحد يتحدث.

في المساء حملتنا سيارة (إيفا) إلى فندق حمدان وسط المدينة. صوت اشتباكات متقطعة ما زال يسمع بين الحين والآخر. ألقوا بنا في صالة الاستقبال، بالكاد حشرتُ جسدي بين من ألقي القبض عليهم. كان الفندق مكتظا بالجنود الحاملين للبنادق فيما كان عدد ممن يرتدون الزيتوني والأحذية الحمراء يخطفون من أمامنا وهم محاطون بمسلحين بعضهم بملابس مدنية. لا أتذكر أني نمت تلك الليلة.. إلا أنني ما زلت أذكر النساء الثلاث وقد حضرن برفقة شخص يرتدي الزيتوني، كان يخطو بيننا وهو يركل، في طريقه، كل من يصادفه.. وكانت هي تتبعه، جلسنا كلنا، كانت المرأة، عيناها فقط ما نراه من وجهها، تتطلع في وجوهنا، أشارت بإصبعها، دون أن تتحدث، إلى ثلاثة أشخاص حملوا، وسط حملة من الرفس والضرب بأعقاب البنادق، إلى داخل الفندق. في تلك الليلة.. تكرر مشهد العرض هذا ثلاث مرّات.. وفي كل مرة كان يدفع بشخصين أو ثلاثة إلى الداخل.

جاء الصباح شاحبا.. منهكا.. ليس كالصباحات الأخرى. دفعنا على عجل إلى الأحواض الخلفية لعدد من سيارات (الإيفا) المنتظرة عند الباب. لم نكن نعلم إلى أين سيأخذوننا. تركنا وسط المدينة سالكين الطريق المتجهة جنوبا. كنت أودّع مدينتي.. هذا ما أحسست به حين اجتازت السيارة الكثير من الأماكن حيث قضيت عمرا بأكمله. هل سأراها مرة أخرى؟ لا أدري.

تندفع السيارات، الواحدة خلف الأخرى، على الطريق المتجهة إلى (الفاو). كنّا، ونحن جاثمون، كجثث يمتلئ بها حوض السيارة. الجنود الثلاثة، كانوا واقفين عند البوابة وأسلحتهم موجّهة إلينا، فقط هم الواقفون وعيونهم علينا فيما كانت عيون الكثير منا راقدة في حجره أو في صدر صاحبه. وعندما أنزلونا عرفتُ أنني عند البوابة الرئيسة لمعهد البتروكيمياويات.

الظلام يزحف من كل مكان مغيبا قمم الأشجار وباسطا على الكون سكونا إجباريا تخرقه، بين حين وآخر، أصوات لا نعرف مصدرها. خفّت الضجة في السرادق الكبير الذي ابتلع الظلام الكثير من معالمه، إلا أن رائحة البحر ما زالت تصلنا بشكل أكثر وضوحا من أي وقت آخر. القينا بعلب التونة وبقايا الخبز، التي أحضرها لنا الرجل بعد أن جمع من كل واحد منّا دينارا، ألقيناها في الخارج. هل ستتسع هذه الغرفة، التي هي بحجم راحة الكف، لأجسادنا نحن الستة؟ جميعنا كان يفكر بذلك.. هذا ما أدركته حين قال الرجل الذي يجلس في الركن وسيجارته مزروعة بين شفتيه: (لن تسعكم هذه الغرفة كلكم إلا إذا نمتم واحدا فوق الآخر. أنا سأطرح جسدي في الخارج وليتبعني أحدكم). ثم قام ليخطو خارجا.. ملقيا جسده ليس بعيدا عن باب الغرفة مخفيا جمرة السيجارةبكفّه. تبعه الشخص الآخر القريب من الباب وجلس عنده.

بخروجهما بدت الغرفة أوسع قليلًا. خدر قاتل كان يستولي على أجسادنا ولم نحسّ به إلا الآن. تمددت الأرجل. الظهور، التي كانت متكئة على الجدار، بدأت تنزلق تدريجيا حتى استقرت الرؤوس على الأرض فوق أكياس الملابس. عيوننا تواجه سقف (الجينكو) الصدئ المطروح فوق عارضة من خشب تمتد على طول الغرفة. لا نعرف كم سنبقى هنا.. هذه الليلة فقط أم لليالي أخرى.. جميعنا لا يعرف. (ستبقون الليلة هنا. ربما ستبحرون في الليلة القادمة أو التي بعدها.. لا نعرف بالضبط. إننا ننتظر الأمر. لا تنسوا ما أوصيتكم به. سأحضر في الصباح لأرى احتياجاتكم).. قال ذلك بعد أن ناولنا علب التونة وكيس الخبز ثم ابتعد متجها إلى السرادق الكبير .

غيّب الظلام معالم الوجوه تماما. تبدو الأجساد كأشباح تتحرك، بين لحظة وأخرى، لإخراج حصاة أو حجرة تغوص بين الضلوع كالسكين.. أو ربما لطرد الخوف الذي داهمنا مع هبوط الظلام. (أشعر أنني قد تسرّعتُ قليلا).. إنه أحد المضطجعين في الصف المقابل منعني الظلام من تحديده بالضبط، قد يكون الذي في الوسط: فتى غض لا يبدو أن شيئا أتعبه. وحين جلس معتدلا تبين لي أنه الذي في الوسط فعلا. أسند ظهره إلى الجدار ودفع، بأصابعه، شعره إلى الخلف مضيفا: (لم يسبق لي أن نمتُ على الأرض بهذا الشكل. أي جنون قادني إلى هنا!). (هو الجنون عينه الذي جاء بنا نحن).. كان، وهو يتحدث، جالسا في الخارج.. جسده يسد فتحة الباب الضيقة فيما كانت قداحته مشتعلة بانتظار أن ينهي كلامه ليشعل سيجارته. (ليس تماما، بعضكم تحدث عن الحرب.. وأنا لم أعش ساعة واحدة في أجواء كالتي تحدثتم عنها، دفعت البدل، ولكني عشت قصف المدن كما عاشه الجميع، وهو لا يشبه الحرب بأي شكل. أما غير ذلك.. فلا شيء يذكر، فأنا وحيد أمي.. أمي التي وقف أبي أمامها طويلا قبل أن يخرج، ما زلت أذكر ذلك، ملابسه (الخاكية) مكوية بعناية وحقيبته معلقة في كتفه. طلبتْ منه أن لا يذهب.. أو على الأقل فليتأخر قليلا ريثما تنطفئ الجبهة التي كانت مشتعلة وقتها، أخبرها أنه لا يستطيع، (فذيولهم هنا يشمون رائحة من جاء، يعرفون متى تنتهي إجازته، وأنا أخاف عليك وعليه، أما مصيري.. فمثل مصير الكثيرين). كان، وهو يحدثها، ممسكا برمانتي كتفيها. هل كان يودعها؟ هل أدرك حدس الأنثى عندها أنه لن يعود؟ خرج متثاقلا ليعود بعد أيام ملفوفا بعلم الوطن.. الوطن الذي دفعتني أمي بعيدا عنه خوفا من أن يلتهمني، أحدكم قال ذلك أيضا وهو يتحدث، كما فعل مع الكثيرين. لم أكن مضطرا للسفر، فأبي ترك لنا بيتًا نعيش فيه، وبيتين آخرين نقتات على إيجارهما.. إضافة إلى راتبه، كما أني بعيد عن الهمّ الذي قد يحمله بعضكم وأجبره على المغادرة، ربما بسبب كوني وحيد امرأة ليس لها أحد غيري في هذا العالم على سعته وترامي أطرافه، (لقد فقدت أباك ولا أريد أن أفقدك)، ولكنها، حين سافر الكثير ممن أعرفهم، في منتصف التسعينيات في فترة الحصار الخانق، دفعتني دفعًا للحاق بهم، دفعتْ مبلغا كبيرا حتى استخرجت لي جواز السفر.. وخرجتُ بحقيبة كبيرة وضعتْ لي كل شيء فيها وساعدتني على

سحبها إلى محطة الباصات، وهناك ودعتني، أمسكتْ برمانتي كتفي، كما فعل أبي معها، وطلبت مني أن أعيش حياتي بالطول وبالعرض، فقط عليّ أن أتصل بها أو أرسل لها مخطوطا مع القادمين كلما كان ذلك ممكنا. ترى.. هل تعلم أمي أين أنا الآن؟).

يبدو صوته، وهو يتحدث، كالمختنق. سكت. الرجل، الذي يجلس في الخارج، سحب نفسا عميقا من سيجارته.. عرفت ذلك لما توهّجت جمرتها أكثر من قبل. حلّ الصمت مرة أخرى.. ومعه عادت الرؤوس لتسبح بعيدا. لقد جعلنا، هذا الفتى الغض، نفكر بأمهاتنا.. نحن الفاقدين كل شيء الآن.. المنتظرين لكل شيء ولللاشيء في ذات الوقت، فالأرض ليست أرضك، والهواء له رائحة غير تلك التي يعرفها أنفك. وسط هذا الضياع.. كانت أمهاتنا ملاذا نحن إليه، نستشعر دفأه، نملأ صدورنا من رائحته. هل تعلم أمك، أنت الآخر، أين أنت الآن؟

حين عاد الفتى ليكمل حديثه كان أكثر هدوءا. (لم أشعر، في أي وقت مضى، برغبتي للحديث كما أنا الآن. هل هي آخر ليلة لي في هذه الدنيا؟ هل سينطلق بنا الزورق غدا ليتحطم في عرض البحر ونضيع كما ضاع الكثيرون؟ لا أدري. أشعر أن هذه الليلة هي ليلة الاعتراف بالنسبة لي. أعرف أن لكل واحد منكم حكاية مشاهدها تمرّ من أمام عينيه الآن، وأنا أحدثكم بكل ما يطوف أو يطفو في رأسي. في عمّان بقيت فترة طويلة آكل وأنام وأتجول حتى وقت متأخر في كل مكان تصل إليه قدميّ، كانت أمي ترسل لي ما مكنني من العيش بهذا الشكل، ولكنها قالت لي يوما: جد لك عملا وساعدني قليلا. عرفت منها بعد ذلك أنها كانت قد باعت أحد البيتين. وبمساعدة بعض من أعرفهم وجدت عملا في مطعم راق، إذ لم تكن لدي مهنة معينة، ولست معتادا على تحمّل العمل الثقيل. ساعدني العمل في المطعم فأخبرت أمي أني أتدبر أمري بشكل جيد ولا داعي لأن ترسل لي أي مبلغ بعد الآن. فترات ترددي على الساحة الهاشمية، حيث اعتاد العراقيون التواجد مساء كل خميس، قلّتْ ثم انعدمت. فالمطعم الذي أعمل فيه يبقى حتى وقت متأخر، وبمغادرة آخر زبون، وهو يتأبط ذراع فتاته أو يحيط خصرها بيده، نبدأ بالتنظيف حتى نجعل المكان كله لامعا كمرآة.. ثم أذهب مشيا، المكان الذي أسكنه ليس بعيدا.. عشرون دقيقة أسيرها على مهل، ثم سلّم..سلّم طويل، أحسب إلى الدرجة الخامسة والثمانين ثم أنعطف يمينا باتجاه الباب الحديد المفتوح على الدوام حيث كنّا نسكن، نحن مجموعة من العراقيين، في دار بغرفتين مع حمام ومطبخ. عددنا لم يكن ثابتا، فهذا يسافر، وذاك يعود، وهناك من جاء لتوّه وفي جيبه قصاصة ورق عليها عنوان الدار. في الصباح كنا نتبعثر لنجتمع في المساء كما نحن الآن، نتحدث قليلا عن يوم عمل بائس، لم يكن أحد منا راضيا عن وضعه.. ربما باستثنائي أنا، فلم أكن ساخطا.. ولا راضيا كل الرضا، لكنه وفّر لي دخلا كنت بحاجة إليه. هؤلاء المتعبون الذين يحسبون للدينار حسابا ويبقون غارقين في أغطية رثة، يشترونها من (البالات)، طوال الشتاء دون أن يجرؤوا على شراء مدفأة نفطية مستعملة لدفع البرد عن أجسادهم معتقدين أن ذلك سيكلفهم، ولكنهم.. هم ذاتهم.. يدفعون بسخاء لمكاتب وهمية ترسم لهم آمالا بالوصول إلى نيوزيلندا أو استراليا.. أو إلى أي أرض هناك في العالم الآخر، دفعوا الكثير ولم يسافر منهم أحد. بقيت الوصولات الصغيرة، التي زودتهم بها هذه المكاتب، طويلا في جيوبهم حتى تمزّقتْ، ثم ضاعت مثل الكثير من أحلامهم. في أيامنا الأخيرة في تلك الدار كنا نبقى صامتين، فقد انتهت الأحاديث وتلاشت الأمنيات، الخوف وحده هو الذي بقي.. الخوف من أن تداهم منزلك الشرطة في أية ساعة من ساعات الليل بحجة مخالفتك قانون الإقامة لينتهي بك الأمر سجينا ثم مرميًّا على حدود المكان الذي هربت منه، كان ذلك يقلقنا كثيرا، ولكن الفرج جاء لما مات الملك الأب وتوّج الملك الشاب، أصدر، في أيامه الأولى، عفوا شملنا نحن المتجاوزين على الإقامة، ألغيتْ جميع الغرامات السابقة وبدأ الحساب من جديد، ألهب ذلك الأحلام مرة أخرى، حزمت الحقائب إلى ليبيا.. البلد الأقرب الذي يستقبل العراقيين دون تأشيرة مسبقة، كثيرون كانوا قد سافروا للعمل هناك بواسطة عقود حصلوا عليها من السفارة الليبية في عمّان، بعضهم اتصل مرة أو مرتين.. ثم اختفت أخبارهم. عرفنا من القادمين لقضاء العطلة

الصيفية أنهم إما أن يكونوا في مدن بعيدة.. أو أنهم عبروا البحر، (فالأمر من هناك سهل ورخيص)، هكذا كانوا يقولون. وكنت أحزم أمتعتي كي لا أبقى وحيدا. بحثنا عن العناوين التي تركها لنا بعض من وصلوا هناك. بصدق أقول.. إني اقتلعت نفسي اقتلاعا. في الأردن كنّا كثرًا، إحساسنا بالغربة أقل وطأة، مَن أضعته منذ سنين قد تجده مساء الخميس في الساحة الهاشمية، إلا أن الحملة التي شنتها الحكومة كانت شديدة. حملتنا الباصات إلى العقبة، ومنها عبرنا إلى نويبع في مصر حيث تم اقتيادنا وجوازاتنا محجوزة حتى الحدود الليبية. بعضكم قد يكون جاء بنفس الطريقة هذه ويعرف المرارة التي تسكنك وأنت تعامل بإذلال. هنا كان الفضاء مفتوحا، وأنت، كعراقي، مرحب بك، لا أحد يسألك إن كان معك إقامة أم لا. تجوّلت في أماكن كثيرة لينتهي بي المطاف حارسا، مع اثنين آخرين، في مخزن كبير لشركة تتاجر بالأدوات الصحية، وكانت أخبار السفر تصلنا، ودّعت البعض، وادّخرت كل دينار أحصل عليه لأكمل مبلغ هروبي، أخبرت أمي بذلك يوما فقالت لي إنس موضوع البحر وعدْ إذا أردتَ، ولكني كنت بعيدا عن العودة.. بعيدا جدا، لماذا خرجت إذًا حتى تعود، بعد كل هذا الوقت، خاصة أن شيئا لم يتغير هناك؟ لم أحدثها عن البحر مرة أخرى، حتى عندما كلمتها قبل أيام هربتُ بعيدا من سؤالها حول ذلك، قلت إذا قدّر لي الوصول فسأكلمها من هناك، وستكون سعيدة.. سعيدة جدا. هل تعتقدون أننا سنصل فعلا؟).

لم يجبه أحد. ربما كان الجميع قد ناموا باستثنائي والشخص الجالس عند الباب.. إذ كانت جمرة سيجارته متقدة. أنا أيضا لم أجبه.. لأنيلا أعلم حقّـًا إن كنا سنصل أم لا. وكانت ليلة طويلة.. أكثر طولا من أية ليلة أخرى عشتها. ثم غلبني النوم.

(في الأيام القليلة القادمة سيأتي من يخرجنا، أنا وأنت، من هنا.. وسنفترق. هذا ما سيحصل. لا أظنك تستطيع العيش كما أنوي أن أفعل). قال علي طرفي لي ذلك وعيونه شاردة عبر الأسلاك المحيطة بالمعسكر. كنّا نسير صامتين، وهذا ما نفعله يوميا حيث نترك الخيمة للرجلين العجوزين ليناما طويلا.. ونخرج، بمحاذاة سور المعسكر الجنوبي حين توقف ليقول لي ذلك.

الأيام التي قضيتها في المعسكر لا أتذكر منها الكثير.. غائمة في ذاكرتي، مرّت برتابة مملة لم يخرقها شيء سوى استدعائنا في إدارة المعسكر ليسمعوا، من جديد، قصة هروبنا ووصولنا إلى هناك، كان شخص آخر يجلس هناك، لم نره في المرة الأولى، لم يفتح فمه طوال فترة بقائنا. ربما فعلوا ذلك كوننا لم نقدم لهم أوراقا تثبت شخصياتنا، فهويتي سحبت مني عندما ألقي القبض عليّ، وقد يكون حصل لصاحبي الشيء نفسه. غير ذلك لم يكن هناك شيء.. نأكل وننام ونتحدث عما حصل هناك، الكثيرون كانوا يبقون طوال الوقت قريبا من الباب الرئيس للمعسكر لمشاهدة القادمين الجدد وسؤالهم عن الوضع هناك وأين وصلت الانتفاضة. أتذكر أني كنت يوما هناك لمّا سأل أحدهم شخصا يدخل المعسكر عن ذلك، وحين أخبره أن الموضوع انتهى وأن المعركة حسمت لصالح الجيش.. حين أخبره بذلك بكى.. ثم انسحب وهو يجفف دموعه بكمي (دشداشته).

لم أجبه بانتظار أن يفصح لي أكثر. مرت فترة صمت طويلة نسبيا كان فيها يجمع أفكاره.. أو ربما ليقرر هل يحدثني أم لا. لم يلتفت إليّ، عيونه ما زالت شاردة في الأفق البعيد. ولما تحدث كان صوته صافيا.. صافيا تماما. (أنا لا أعرف على ماذا تنوي وكيف تريد أن تكمل طريقك، لم أسألك عن ذلك من قبل، لم يتوفر لنا الوقت الكافي للحديث كما هو الآن، كما أن هذا شأنك.. قد لا تريد الحديث عنه، احترم خصوصيتك هذه. ولكن بما أننا عشنا لحظات صعبة معا.. وحتى لا تقول أني تركتك هنا لقدرك.. سأخبرك نيّتي. لستُ علي طرفي.. هذا الاسم سأحمله هنا فقط. اسمي الحقيقي هو سامي لازم.. نحن بأمان الآن ولا ضير من إخبارك بالحقيقة، احتفظ لأبي بصورة في راسي لا تشبه تلك التي تعلقها أمي على الجدار، فقد فقدته صغيرا، تقول أمي انه خرج ليشتري الخبز ولم يعد، كان ذلك قبل الحرب العراقية الإيرانية.. في الفترة التي شن فيها النظام حملته على كوادر الحزب الشيوعي، أبي كان منهم، كان يعمل سائقا في دائرة الاتصالات في البصرة، يقود سيارة كبيرة لنصب أعمدة الهواتف، كان نشطا في التنظيم بشكل لافت حتى أن الجميع كان يعرف انتماءه الحقيقي. تمّ طرده من العمل مرّات عدة، واعتقل قبل اختفائه مرّتين، يخرج بعد كل مرة بجسد محطم ونفس شامخة، مرة أدخلوا في مؤخرته قنينة (بيبسي)، بقي فترة طويلة لا يستطيع الجلوس، عندما ذهب إلى الطبيب قال له: (لو لم تكن كبيرا لقلت عنك شيئا آخر). كما أخبرتك.. كل هذه المعلومات مصدرها أمي، فقد فقدته صغيرا. لمّا طلبوا منه أن يوقع لهم على ورقة براءة من الحزب.. فعل، ولكنه بقي مرتبطا بتنظيم سري كان يعمل في الداخل. حينما اعتقلوه في المرة الثالثة اختفى نهائيا، لم نجد له أثرا مع أن أمي بحثت عنه في كل السجون التي استطاعت الوصول إليها. بعض من خرج أخبرها أنه شاهده في محكمة الثورة. ولم نسمع عنه شيئا آخر.. غاب كالكثيرين. أحرقت أمي كل كتبه وأوراقه التي خلّفها.. فقط صورته المعلقة على الجدار هي كل ما بقي منه. أنا ابن هذا الرجل، وأنوي أن أسير على خطاه. بحثت في البصرة عمن قالت أمي أنهم أصدقاؤه، بعضهم بقي صامتا.. فقد مرت فترة طويلة، أحدهم قال لي إن الموضوع قد انتهى ولم يعد له علاقة بالتنظيم بعد الذي جرى.. واحد فقط نظر في عيني طويلا قبل أن يقول لي: (ما لم نستطع تحقيقه نحن ستعجزون عنه أنتم. ابق إلى جنب أمك فليس لها غيرك.. وانتظر). وانتظرت حتى حصلت

الانتفاضة، خرجت على غير هدى وصورة أبي أمام عيني، انخرطت ضمن مجموعة مقاتلة، ألحقنا الهزيمة بالكثير من بؤر البعثيين، ثم كُلفتُ بنقل السلاح من منطقة شط العرب إلى مركز البصرة، الأمر كان بسيطا في البداية، ولكن عندما ظهر الجيش تعقدت الأمور، المجموعة التي كنت مكلفا باستلام السلاح منها هناك بدأت تتأخر.. ثم اختفت. في آخر مرة ذهبت فيها إلى هناك.. انتظرتهم الليل كله ولم يأت أحد غير الشخص الذي كان موجودا أصلا في مبنى قديم للجيش. أتذكر أني سألته: من أين تأتون بالسلاح؟ فلم يجبني.. فقط قال لي إن السلاح موجود في كل مكان وإنهم يجمعونه فقط من المخلفات التي تركها الجيش. في تلك الليلة قال لي: (إذا حصل شيء ولم تتجحوا فسيشن النظام عليكم حملة إبادة.. إن وقع شيء من ذلك وقررت الاتجاه شرقا اتصل بي. أنت علي طرفي.. سيكون هذا الاسم كلمة السرّ بيننا). سجلت منه على ورقة كنت احملها أسماء ثلاثة أشخاص وأرقام هواتفهم. كانت ليلة طويلة تلك التي قضيتها معه.. وكانت الأخيرة، نحتسي الشاي ونتحدث. وقتها حدثته عن أبي وكيف اختفى، قال إنه يعرف ذلك، فبعض الأحداث عاشها بنفسه .. وسمع من الآخرين الكثير. ثم وضع يده على كتفي وتعهد لي أن يوصلني إلى شمال العراق عبر إيران حيث الحزب، الذي كان أبي ينتمي إليه، يعمل هناك، وهذا ما كنت أريده. وحين ودعته، قبيل الفجر، لأعود بعد أن يئست من الحصول على شيء من قطع السلاح أو الذخيرة، طلب مني أن أكون حذرا. فالأمور بدأت تتغير. وليلتها ألقي القبض عليّ بمجرد أن عبرت الجسر).

حين صمت علي طرفي، أو سامي لازم كما أخبرني قبل قليل، أدركت أن المساء قد حلّ. كنا ما زلنا واقفين عند السور الجنوبي للمعسكر لما التفت إليّ. نظر في عيني طويلا ثم قفلنا راجعين إلى خيمتنا. (لن أتركك هنا. عندي ثقة تامة أن الرجل الذي حدثتك عنه سيحضر، وقتها سأطلب منه إخراجك، ولكن عليك تدبّر أمرك هنا. لا أعلم بماذا تفكر وكيف تنوي أن تكمل طريقك.. ولكنك إن بقيت هنا طويلا ستجد نفسك على الحدود مرة أخرى، ربما هذا ما تريده.. أو لا تريده.. لا أدري).

خطوات قليلة كانت تفصلنا عن الخيمة.. خيمتنا. أحد العجوزين كان يجلس خارجا فيما يبدو أن الآخر مضطجع في الداخل. ألقينا عليه التحية ودخلنا. لم نتناول شيئا تلك الليلة. رمينا جسدينا، كل على فراشه، وعيوننا مزروعة في سماء الخيمة الواطئة.

(١٦)

مع أن السماء كانت تبدو أكثر صفاء من أي وقت آخر.. فقد جاء الصباح ثقيلا، استقبلناه بأجساد محطمة غير معتادة على النوم على الأرض كما قضينا ليلة أمس. صوت الطيور، التي بدأت تترك مخابئها على الأشجار وتطير، يخفت تدريجيا.. أمام الهمهمة التي بدأت تتعالى من السرادق الكبير. كنّا ما نزال صامتين محاولين طرد ألم خفيّ استوطن أجسادنا حين أطلّ علينا الرجل. (خير). أجابه بعضنا.. في حين بقيت عيون الآخرين تتدلى من سقف الغرفة (الجينكو) وكأنها معلقة هناك. (عليكم تحمّل هذا النهار فقط. الليلة ستنطلقون. هذا أكيد. لقد رتبّنا الأمر مع دوريات الساحل. ومع ذلك فعليكم أن تبقوا حذرين. حافظوا على ما أوصيتكم به. والآن ليعطني كل واحد منكم دينارا حتى أحضر لكم الفطور). وبعدما أعطيناه تركنا متجها إلى السرادق الذي حلّ الصمت فيه بعد دخوله.

تحررنا، نحن العراقيين الستة، من الخوف الذي لازمنا منذ أن وصلنا إلى هنا وبدأت أرجلنا تدبّ بعيدا عن الغرفة الصغيرة التي لم يغادرها بعضنا إلا للتبول أو التغوط. ترسم الأشجار العالية ظلا على الأرض، تمزّقه بعض بقع الضوء المنفلتة من بين الأوراق، وحاجبة سور المزرعة الذي حدثتنا عنه سيجارة الرجل عبر شفتيه، قد يكون بعيدا، لا شيء تلتقطه العين غير السرادق ودار بعيدة هناك.. وزورق قديم رفع عن الأرض ببراميل فارغة. ابتعدت في الاتجاه الآخر متحاشيا السرادق ومخلفا البيت الصغير، الذي يبدو هناك على البعد، خلف ظهري.

(في تذكر المكان تنشط الذاكرة)(*).. قرأت ذلك في مكان ما.. لا تتذكر أين، ولكن ها هو المكان، بطبيعته، يعيدك إلى مكانك الأول.. تتجول فيه قليلا ثم تتركه على عجل إلى أول مكان تطأه قدماك وتريح ظهرك على أرضه بعد أن خرجت من معسكر اللاجئين. عملت هناك مزارعا لفترة ما زلت تتذكر كل تفاصيلها.. كم من الوقت مرّ على ذلك؟ الأشهر التي قضيتها في سوريا يوم دخلتها قادما من إيران بجواز سفر مزور.. بقاؤك في الأردن مزروعا كنبات الصبار على حدود المزارع.. ثم وأنت هنا.. مرميا كصخرة آثار مهملة على جانب طريق لا يمر بها أحد. لِمَ تتذكر كل ذلك الآن؟ هل ستغادر الليلة، كما أخبرك الرجل، هذه الأرض لتصل إلى هناك وتخلع عن جسدك تعب السنين كله؟ كيف ستكون معسكرات اللاجئين؟ ليست خيما بالتأكيد.. لا طوابير طويلة أمام الحمامات في أي وقت ذهبت فيه إليها. ستعرض على أطباء عدة لينظروا في كل أمراضك القديمة والجديدة، أين تجد كل ذلك! هو البحر فقط يفصل بينك وبين أن تكون هناك. والآن بعثر وقتك في هذه المزرعة، طف بها كما فعلت في يومك الأول بمزرعتك الأولى.

كان الصباح مشابها لهذا الصباح حتى كأنه هو يوم سمعتما اسميكما عبر مكبرات الصوت المنتشرة في المعسكر، كنتما ما تزالان مضطجعين تحت تأثير خدر ثقيل يسيطر على جسديكما، نهضتما، أنت وصاحبك بصعوبة جارّين أقدامكما جرّا إلى إدارة المعسكر. في الغرفة ذاتها، التي دخلتها أول مرة عند قدومك، وجدتما من ينتظركما، أنت وقفت بعيدا بينما عانق صاحبك أحد الواقفين الثلاثة بحرارة وصافح الآخرين بود ظاهر ثم عرّفك عليهم: (كان معي).. قال لهم. تحدث الرجل، الذي عانقه علي طرفي، بالفارسية مع الشخص الجالس خلف الطاولة فأجابه هذا بشيء وهو ينهض خارجا.

- سألته إن كان بالإمكان أن نبقى قليلا لوحدنا فقال ليس طويلا. لقد حصل ما تحدثنا عنه في آخر ليلة رأيتك فيها يا سامي.

- ليلتها ألقي القبض عليّ. بمجرد أن عبرت الجسر وجدتهم بانتظاري. لم يخبرني أحد أن الطريق قد تمت السيطرة عليها من قبل قوات النظام مع أني قابلت الكثيرين وتحدثت إليهم قبل أن أعبر. ولو لم تكن السيارة فارغة لأعدمت لحظتها. حسنا فعلت إذ لم تعطني شيئا تلك الليلة وكأنكم كنتم تعلمون. (قالها وهو يبتسم.. جملته الأخيرة هذه).
- وكيف استطعت النجاة؟!
- هذا حديث طويل سأخبرك بكل تفاصيله. الوقت ضيّق الآن وقد يعود الرجل في أية لحظة. المهم.. أنا وصاحبي هربنا من السجن معا.. ونحن هنا الآن، وقد اتصلت بك كما قلت لي.
- وها أنا قد جئتك.
- صاحبي يجب أن يخرج معي، هذا ما أطلبه منك.
- ولكني لا أعرفه.. مع اعتذاري الشديد له.
- أنت تعرفني.. وأنا أضمنه. طريقه هو غير طريقي.. أعرف ذلك، ولكن تدبّر له أمرا كي يخرج من هنا.

وبعد أن التفت الرجل إلى صاحبيه وتحدثا بالفارسية قليلا عاد ليقول:

- حسن. صديقنا هذا من أهل الأهواز.. وهو سيكفله. الرجل صاحب مزارع ويستطيع أن يجد له عملا في إحداها.
- أنا ممتن لك.. وله.

قال علي طرفي ذلك وهو ينظر إلى الرجل الذي وافق على اصطحابي. وكنت مطرقا.. محاولا رسم صورة، بدت بدون ملامح، لحياتي بعد أن يتركني علي طرفي وحيدا ويذهب. أيقظتني كفّه وهو يربت على كتفي. وكان الطريق طويلا بقيت فيه محشورا في حوض السيارة الخلفي مع اثنين احدهما سامي الذي يجلس بجانبي. كنت مجاورا للباب.. تسرح عيناي بعيدا في مساحات الأرض الشاسعة حيث لا شيء تلتقطه العين غير أبراج الكهرباء ومساحات خضر متناثرة هنا وهناك. صامتا كنت .. وصاحبي يجيب على أسئلتهم. أخبرهم عن الوضع هناك، قال لهم إن الجثث تملأ الشوارع، مكومة في الساحات، تقتات عليها الكلاب، لا أحد يجرؤ على الاقتراب منهم ودفنهم، الكثيرون اعتقلوا دون تهم.. وأعدموا دون محاكمات. أعادني قوله إلى قاعة معهد البتروكيمياويات حيث كنّا مسجونين.. نرى شخصا بوجه حليق وملابس نظيفة يبقى في الخارج مع الجنود، ينادونه (الدكتور)، وكان طبيبا ألقي القبض عليه كالآخرين، ولكونه كذلك عومل بلطف.. وترك له هامش من حرية يتحرك فيه، وبقي كذلك حتى جاء يوما ضابط برتبة نقيب.. وبمجرد أن رآه قال: (هذا هو الخائن الذي لم يعالجني في المستشفى التعليمي).. تلاقفته الأيدي وأنهيت حياته برصاصة واحدة أطلقت على رأسه أسفل بئر السلم.

(وصلنا الأهواز، ومزرعة الرجل تقع في أطرافها). (سآخذكم أولا إلى البيت). أعاد ذلك إلى جسدك إحساسه باهتزاز السيارة وهي تجري على الإسفلت. عبر النافذة.. كنت ترى بداية المدينة، صفوف البيوت التي تركض سريعا إلى الخلف. هذا المكان لا يعنيك، لا يذكرك بشيء، ليس لك أحد هنا، ومع ذلك.. عليك أن تبقى فيه، الله وحده يعلم كم سيطول بقاؤك، عليك أن تألفه، ما دمت فيه، كي لا تزيد وحشة نفسك وحشة أخرى. ستصبح مزارعا مع آخرين قد لا تعرف لغتهم، همومهم غير همومك، ولهم بيوت يذهبون إليها في المساء لتبقى وحيدا، تجترّ ماضيك، تقتات عليه. أمك لا تعلم أين أنت الآن، لا أحد من أهلك يعلم، ربما يظنون أنك ما زلت في بغداد، قد يطمئنهم ذلك، فلا شيء حصل هناك، والطرق المقطوعة والوضع المتفجر في الجنوب هو ما يمنعك من المجيء، ولكن سينتهي كل شيء، وسترتدي السلطة، من جديد، كل

أوسمتها التي خلعتها، وقتها سيقلقون عليك عندما تتأخر، سيرسلون من يتفقدك ليجد مكانك خاليا، وقتها لا تدري ما الذي سيحصل، حاول أن لا تفكر فيه.. الآن على الأقل.

توقفت السيارة أمام دار كبيرة بعد أن اجتازت بوابة عالية من الحديد مفتوحة على مصراعيها. فتح الرجل الباب وقادنا إلى غرفة واسعة يسار المدخل مفروشة بسجاد مزخرف أحمر فاخر وتتراصف عند جدرانها مقاعد وطاولات من خشب الصاج اللامع. في ركن الغرفة البعيد جهاز تلفاز مطفأ والنوافذ الثلاث مغلقة وستائرها مسدلة. امتلأت الغرفة بهواء نقي بعد أن أزاح الستائر وفتح النوافذ الأمر الذي جعلني أتنفس بعمق. وبعد عبارات الترحيب الأولى قال صديق سامي:

- لا تتعب نفسك كثيرا. أنا وسامي يجب أن نذهب. أنت تعلم أن طريقنا طويل.
- أعرف ذلك. بعد الغداء يمكنكم الذهاب، أما الآن.. فلا.

الحديث ذاته استمر طوال فترة جلوسنا.. وعلى الغداء أيضا. قال لهم سامي إنهم كانوا يتوقعون تدخلا أكبر وأكثر فعالية للمجموعات التي دخلت من إيران، ولكن ذلك لم يحصل، فقد اكتفى هؤلاء القادمون بزيارة أهلهم ثم عادوا من حيث أتوا، كانوا يراقبون من بعيد ليروا ما سيحصل. (أنت تعلم أنني كنت أعبر إلى قضاء شط العرب كثيرا لتجهيز الأسلحة والذخائر، وفي كل مرة كنت أسمع من يقول: (غدا يأتي السيد.. غدا يأتي السيد)، ولم يجئ هذا الغد.. ولا جاء أي (سيّد)، (السيّد) الوحيد الذي رأيته والناس متحلقون حوله كان في المسجد الواقع على الشارع الرئيس، كثيرون من الذين حوله لا يعرفون اسمه أو من يمثّل، ولم يفعل شيئا غير أن يعالج بعض الأطفال المرضى بقليل من لعابه.. أو يقرأ للحاضرين مجلسا حسينيا لا أثر فيه لما يجري حوله. وقتها قلت إن الأمر لن ينتهي كما نريد، ومع ذلك أصررنا.. لأنه لم يكن لنا خيار آخر).

لم يجبه أحد، غير أن الرجل الذي كان معهم والذي لم اسمع صوته مطلقا بدا قلقا في جلسته، أكثر من أي وقت آخر، بشكل لفت الأنظار إليه مما جعل صديق سامي يستعجل الرحيل. كنّا قد أنهينا طعامنا وبدأت الأطباق ترفع. خرجوا جميعهم. وقبل ذهابه.. لم يودعني سامي طويلا، ربما كان، هو الآخر، يهرب من لحظات الوداع، أمسك بساعديّ وقال: (حاول أن لا تبقى هنا طويلا). ومن النافذة المفتوحة كنت أرى السيارة تبتعد.. وبقيت وحيدا.

(*): العبارة للقاص قصي الخفاجي في مطلع قصته (مستوطنة الكلاب).

(١٧)

- أنت عراقي؟

بعربية صافية، وبلكنة تشبه لكنتك وتختلف عن تلك التي تسمع بعضهم يتحدث بها هنا، كلّمتك وهي تسير خلفك بخطوات دافعة أمامها عربة صغيرة متجهين إلى المخزن.

كان قد مرّ على وجودي هنا أشهر عديدة حفظت فيها تفاصيل المزرعة وعرفت الكثير مما يجري فيها مع أني لم أكن مزارعا يوما ما. (أنت تتعلم بسرعة أكثر مما توقعت.. وهذا سيجعل غيابي عنكم يطول أكثر). ولم يكن ذلك منك حبا في التعلم بقدر ما كان تشبثا في المكان الذي يوفره لك وهروبا من جحيم رأسك الذي ما زال ضاجا بما جرى ويجري هناك، تتمنى أن يستمر العمل ليلا ونهارا حتى لا تعود إلى غرفتك التي بمجرد أن تغلق بابها تجد نفسك بعيدًا مرة أخرى، منظر الجثث التي رأيتها في طريقك ما زال ماثلا أمامك، وأنت في السجن همس بعضهم في أذنك الكثير مما لم تره، ملأك ذلك خوفا جعلك تركض الليل كله لتنجو بنفسك.

بقدر ما وفّرت لي غرفتي هذه خلوة أفتقدها منذ أشهر.. كانت جدرانها تطبق على الروح فأفرّ خارجا في ظلمة الليل لأقضي الكثير من الوقت رائحا غاديا بينها وبين المخزن منتظرا أن يصرعني النوم لأغفو بسرعة حين ألقي جسدي على الفراش.

وحين لم أجبها سألتني مرة أخرى بصوت مرتفع هذه المرة:

- أنت عراقي؟

يعطيني الطواف في المزرعة النهار كله حماية لا بأس بها من الأسئلة الكثيرة التي توشك أن تنطّ من عيون رؤساء العمال، وكنت أغادر بمجرد أن ينتهي الحديث عن العمل قاطعا الطريق أمام أي تساؤل أو علاقة قد تنشأ.. حذر أزلي اعتدنا عليه هناك لنبقى أحياء. بدأت أميز الوجوه، أعرف بعض الأسماء، وهذه الفتاة، التي تسير خلفي، رأيتها من قبل تتحدث الفارسية مع زميلة لها وهما تعملان. ربما كونها أنثى هو ما جعلني ألتفت إليها لأراها بوضوح:

- ظننتك فارسية. فقد سمعتك تتحدثينها بطلاقة قبل أيام.
- الجميع هنا يتحدث اللغتين.
- نعم.. أنا عراقي.

قلت ذلك وأنا أحاول فتح القفل الكبير الموضوع على باب المخزن.

- خراطيم المياه والأشياء التي طلبتموها موجودة هناك.. في الخلف. خذي العدد المكتوب في الورقة فقط.

ولمّا خطت إلى الداخل رأيت أنها أنثى فعلا أكثر من أي وقت آخر رأيتها فيه. وحين غابت بين الأغراض الكثيرة المبعثرة خطوت خلفها.. إلا أنني عدت بعد لحظات لأقف خارج البوابة تاركا جسدي يتشرب دفء الشمس الساطعة علّها تخفف من ارتجافه. وعندما خرجت.. كنت هادئا تماما :

- المخزن بحاجة إلى ترتيب.
- أنا أرى ذلك أيضا. قد نفعل ذلك في الأيام القادمة.

منذ متى لم تحدث امرأة بكل هذا القرب؟ أشهرك الأخيرة قضيتها محشورا بين أجساد موشومة بكدمات حمر وزرق ورؤوس معصوبة تضيق بها قاعات السجن.. بين العساكر الذين يخطون إلى الداخل فتحاول لمّ جسدك قدر ما تستطيع لتجنّب ركلة أو لسعة سلك مجدول ستطولك مهما فعلت، حتى الحلم بأنثى.. أية أنثى، لم يكن يراودك، وها هي واحدة تتحدث إليك عن قرب وتسير أمامك، ليس بعيدا عن ناظريك، تستطيع قراءة خطوط الجسد من وراء جلبابها الواسع الطويل. في منتصف الطريق التفتتْ إلي فرأتني خلفها.. وعندها انعطفت في أقرب ممرٍّ التقطه قدمي.

ما تبقى من النهار بعثرته بعيدا عنها وعدت مبكرا إلى غرفتي. كنت مشتتا فتركت تدوين بعض التفاصيل الخاصة بالعمل إلى وقت أكون فيه أكثر هدوءا. أرحت ظهري على الفراش فبدوت وحيدا أكثر من أي وقت آخر. كان سامي لازم يردّ علي الصوت.. ينقذك من صمتك حين يراك غارقا فيه، ولكنه ذهب، كان يعرف طريقه.. يرسمه كما يريد في حين أنك لم تخطط لشيء، فجأة وجدت نفسك وسط هذا الخضم المتلاطم، لطالما فركت عينيك، في أيام اعتقالك الأولى، لتتأكد من صحوك، ظننته حلما سينتهي، وها هو يطول أكثر مما توقعت.. يرمي بك بعيدا. هل يعلم أهلك أين أنت الآن؟

طوال فترة اعتقالي حاولت أن أجد أحدا أعرفه ليوصل لهم الخبر.. ولكني لم أجد، والنهار الذي قضيته في بيت سامي، بعد هروبنا، كان قصيرا ومشحونا بالترقب حتى أن فكرة كهذه لم تراودني، كنت أفكر بخلاصي، وأظن أنه لم يكن أحد ليجرؤ على إيصال خبر عن سجين أو هارب في مثل ذلك الظرف. أنت أكثر هدوءا الآن، أكثر أمانا، تستطيع أن تفكر بطريقة ما لإيصال خبر إلى أهلك، ولكن مهلا.. فأنت في إيران.. البلد الذي خضتم حربا طاحنة ضدها استمرت ثماني سنوات، كما أن الكثيرين أعدموا أو اختفوا بتهمة العمالة لهذا البلد.. وها أنت تريد تقديم مبرر آخر كي يشعر أهلك بالقلق إضافة إلى قلقهم عليك. إنس ذلك الآن.

- أنت عراقي؟

تستحضر صوتها مرة أخرى لتطرد عن نفسك وحشة الليل وطوله وأنت ملقى، كأية قطعة مهملة من تلك التي تجدها مرمية هنا وهناك أثناء تجوالك اليومي في المزرعة، على السرير الحديدي شابكا كفّيك تحت رأسك وعيونك مسمّرة في السقف. وبقدر ما بعث صوتها، من جديد، أشياء كنت قد أضعتها.. بقدر ما ذكرك بغربتك، لكم حاولت أن تألف المكان.. تنشئ علاقة بينك وبينه، ولكنك لم تنجح.. وربما فشل هو. كل هذه المزرعة على سعتها.. أشجارها المتنوعة.. مساحاتها الخضراء.. بيوتها البلاستيكية.. كل شيء فيها.. لا تعني لك شيئا، لا تذكرك بشيء حتى أنك أضعت الطريق مرّات عدة إلى حيث تريد وكأن دوامة تلف بك. ما دامت عيناك تلتقطان المشاهد فأنت هنا، ولكن إن غابت عنك الرؤية وسبح راسك بعيدا عدت إلى هناك.. لن يتغير شيء.

ولكن.. ها أنت تلمس تغيّرا، فشاشتك، هذه الليلة، تحمل لك صورة فتاة تدفع عربة وأنت تتبعها عن قرب، تدركها أخيرا عند زاوية مهملة لم تطأها قدماك يوما، ربما هي من قادتك إلى هناك تاركة لك عيش متعة اكتشافها كما تشاء.

(١٨)

أجسادنا، التي تبعثرت أول الصباح في أرجاء المزرعة، عادت إلى الغرفة بخطى منهكة ورؤوس مطرقة بهموم ثقيلة، بعضهم كان يتابع خطا يرسمه غصن، يمسكه بيده، على تراب الأرض الذي ما زال مشبعا برطوبة الليل. يبدو أن ألفة غريبة نشأت بيننا، نحن العراقيين، توارد خواطر جعلنا نعود في ذات الوقت إلى الغرفة التي انطلقنا منها صباحا كل في اتجاه. الرجل.. الذي لم تكن السيجارة تترك شفتيه.. ليس معنا، ربما لم تنته جولته بعد.. هكذا خمّنت مقتربا من باب الغرفة قبل الآخرين لأجده هناك مضطجعا في ركنه فيما الغرفة ممتلئة برائحة الدخان. تبعني الآخرون ولكن ليس كل إلى مكانه الذي كان فيه أمس. استقرت خلفياتنا على الأرض.. والظهور التصقت بالجدران التي ما زالت محتفظة ببعض برودة الليل ورطوبته. كان الوقت يزحف بطء نحو الظهر، لَكم يبدو هذا النهار طويلا.. ثقيلا ليس كأي نهار آخر، يزيد من ثقله الصمت الذي يلفنا جميعا، صمت قلق، ربما كل يكلم نفسه كما أفعل أنا، يحاول طمأنة النفس التي ستنطلق إلى المجهول من مكان مجهول مع أشخاص مجهولين.. كل ذلك يرتبه شخص لا يعرف أحد عنه شيئا غير اسم ربما يكون وهميا.. ورقم هاتف يتخلص منه ساعة يشاء.

(هل وجدتم شيئا)؟ قال رجل الركن وهو يطلق سحابة دخان ارتطمت بسقف الغرفة الواطئ لتأخذ طريقها إلى النافذة المفتوحة. قوله ذاك جعل رؤوسنا المطرقة ترتفع ناظرة إليه، ولما لم يجبه أحد أضاف: (أنا لم أنم ليلة البارحة. المداهمات التي تقوم بها الشرطة لهذه الأماكن المشبوهة التي يستخدمها المهربون غالبا ما تتم ليلا. وإذا صدق الرجل في قوله من أننا قد نبحر هذه الليلة فستكون أمامنا فترة لا نستطيع النوم فيها.. مَن سينام في الزورق المتهالك الذي سنبحر به سيلقي به أولئك الأفارقة إلى البحر حتى يخف الحمل قليلا). جملته الأخيرة هذه قالها وهو يضحك مما أبعد خوفا أوشك أن يتسلل إلى نفوسنا المضطربة أصلا، وعند ابتعاده قال بعضنا معقبا:

- لم أجد شيئا. أنا وصلت قريبا من الدار، النوافذ مغلقة والستائر تحجب ما بالداخل.. يبدو أن لا أحد هناك. بعدها بدت المزرعة واسعة. لم أبتعد كثيرا. أوصانا الرجل أن لا نري أنفسنا في النهار.
- ثلاثة زوارق، مثل هذا القريب منا، رأيتها هناك، أحدها كان جديدا. هل سيتم تهريبنا بمثل هذه! إنها صغيرة ولا تتسع لكل هذا العدد.
- فكرتُ في إلقاء نظرة على السرادق، فهؤلاء سيبحرون معنا. اللغط الذي في الداخل يزداد مع اقترابي، لم أكن افهم شيئا مما يتحدثون فيه بسبب تداخل أصواتهم واختلاف لغاتهم، ولكن الصمت بدأ يزحف تدريجيا من بوابة السرادق إلى داخله بعد أن انتبه إلي بعضهم واقفا عندها، ثم ابتعدت .. ليعود الصوت خافتا أول الأمر.. ثم يعلو شيئا فشيئا.

لم أجد شيئا أقوله.. فقد كنت سارحا في المزرعة دون أن أرى منها شيئا، جسدي تائه هنا.. ورأسي هناك في غابات النخل الممتدة على طول الشط، الأنهر الصغيرة التي كنا نتبارى بقفزها ونحن صغار، يومك الأول في المدرسة ينزّ إلى ذاكرتك الآن، ترى نفسك قابعا في الرحلة الأخيرة، طول قامتك دفعك بعيدا عن الصف الأول، حيث جلست أولا، قليلا قليلا حتى انتهيت هناك. ومع ذلك لم تستطع إخفاء رأسك، كان يراك بوضوح من مكانه القريب من السبورة، لم يمر الكثير على يومك الأول بعد وها أنت واقف ورأسك بين قدميك.. صورة لم تفارقك كل هذه السنين، تتذكرها حتى وأنت في قمة نشوتك فتنطفئ:

- ما بك!؟
- لا شيء. صورة تعشش في رأسي وتأبى أن تفارقه.
- أخشى أن تكون قد مللتني.
- ليس الأمر كما تظنين.
- حدثني عنها إذا.

وكان جسدها الساخن، بشكل تحس به يحرقك، ملتصقا بجسدك فوق السرير الحديدي الوحيد في غرفتك. في الخارج.. كل شيء هادئ هدوء مقبرة. يتناهى إلى سمعك نباح كلب بعيد.. أو ربما عواء ذئب، ذكرك ذلك بنواح امرأة ثكلى فخبأت وجهك في الصدر النافر، وعندما مسحت بيدها على رأسك هدأت قليلا، استطعت أن تلتقط أنفاسك. (حدثني). يعيدك هدوء المزرعة ليلا إلى هدوء الصف، ترى نفسك واقفا.. أنت الواقف الوحيد.. في الصف الصامت حيث ينتصب المعلم بجسده الضخم، الذي يشبه الغول، أمام السبورة، فأنت لم تحضر بعد صورك الشخصية التي طلبها قبل ثلاثة أيام. (إذا لم تحضرها غدا فلا تأتي).. هكذا قال لك وهو يشدّ أذنك، طفرت الدموع من عينيك، ولكنك لم تبك. أخبرت أمك بذلك وكانت قد وفّرت من مصروف البيت طوال الأيام الماضية ما يكفي لالتقاط صورة شمسية لك، أخذتها فرحا، إلا أن فرحك كله تبخر لما أخرجها معلمك من ربع مظروف رسالة وضعها المصور فيه لينظر إليها، ثم بصق عليها وهو ينظر إليك قبل أن يعيدها إلى ربع الظرف ويلتفت. تحسّ بها تضمك بشدة فيصرّ السرير تحتكما:

- أنا من ستجعلك تنسى.
- هل تستطيعين!
- سترى ذلك الآن.
- ليس الآن أرجوك. أشعر برغبة للنوم كطفل. أنيميني.

وبقيت تسمع صوتها منسابا يهدهدك حتى غفوت. لا تدري هل ذهبت مباشرة أم بقيت معك حتى وقت متأخر. في الصباح.. لم تستيقظ مبكرا كما هي عادتك، بقيت مضطجعا، يكشف الضوء المتحرر من ستارة النافذة غرفتك بكل تفاصيلها، ترى كل شيء في مكانه تماما.. ليس المكان الذي اعتدت أن تضع فيه أشياءك، فأنت، في الأساس، لا تضع شيئا في مكان محدد، تترك كل شيء حيث تضعه يدك. أما هي.. فيبدو أنها بعد أن أحكمت وضع الغطاء على جسدك فعلت كل هذا: ملابسك معلقة على المشجب، ما تبقى من عشاء البارحة لا أثر له.. في حين تستقر أوانيك القليلة نظيفة على الطاولة، قريبا من رأسك قدح ماء ممتلئ ومغطى بصحن صغير، وعندها فقط أحسست بجفاف فمي فمددت يدي إليه.

إلى أين تريد بك هذه الفتاة الأهوازية؟ في أيام تجوالك الأولى في المزرعة لم ترها، ربما كانت موجودة ولم تنتبه إليها. كنت مشغولا بمحاولة التأقلم مع الوضع الجديد الذي وجدت نفسي فيه دون أن يكون لي خيار في ذلك. غادر علي طرفي، ومدة الضيافة التي أصر الرجل على أن استوفيها كاملة.. انتهت، وأنا أيضا.. سئمت الجلوس في غرفة الضيوف طوال النهار والليل، أخرج فقط مع الرجل حين يخرج إلى مزرعته التي لا تبعد كثيرا عن الدار، لكم حاولت حساب الدقائق التي نقضيها في سيارته حتى نصل.. إلا أنني، في كل مرة، كنت أضيع الحساب حتى كففت أخيرا. صبيحة اليوم الرابع أو الخامس اصطحبك إلى هناك، أول شيء فعله هو إرشادك إلى غرفتك، فبعد أن فتح بابها الحديدي ناولك المفتاح: (هذه ستكون غرفتك، وهي متطرفة قليلا حتى لا يزعجك أحد. هؤلاء العمال يتحدثون كثيرا، وربما يقتحمون عليك أوقات خلوتك. حاول أن تصنع لك وضعا خاصا معهم، فأنت هنا تمثلني، أنا لا أستطيع الحضور يوميا، أما كيف تفعل ذلك.. فالأمر متروك إليك).

بدت الغرفة نظيفة كما لو أنها قد نظفت للتو، رائحة طلاء الجدران ما زالت تملأ فضاءها، كل موجوداتها سرير حديدي وخزانة صغيرة.. مشجب مثبت على الجدار وطاولة عليها مجموعة أوان مغسولة ومقلوبة بجنب قنينة غاز بحجم صغير تمثّل موقدا.. هذا كل شيء. خلال فترة تفقدي تلك كان الرجل قد غاب في الخارج ليعود ومعه حقيبة متوسطة الحجم وضعها على السرير: (هذه بعض أشياء ربما تحتاج إليها. حمّامك هو هذا البناء الصغير في الخارج مجاور دارك. والآن هيّا).

لم تكن تتصور أن المزرعة واسعة كل هذه السعة. في المرات السابقة التي حضرت فيها معه لم أرها كذلك، أو ربما لم يأخذني هو إلى كل أرجائها كما يفعل الآن. عرّفني إلى رؤساء العمال في أقسامها الذين بدوا، حين رأونا، مشغولين بمتابعة العمال وإرشادهم. ونحن نسير كان يحدثني: (عملك هنا محصور بمتابعة هؤلاء وتسجيل ما يحتاجونه. التسويق يتم بالاتفاق مع مكتبنا حيث أتواجد أنا غالبا. هذا هو المخزن). أمام بناية كبيرة، لا تبعد عن غرفتي كثيرا، بسقف جملوني وبوابة حديدية واسعة كنا نقف، ناولني المفتاح بعد أن قال لي قبل أن يذهب: (أيامك الأولى ستكون صعبة قليلا، على أية حال.. الجميع هنا يعرفون عملهم، وأنت أيضا ستعرفه.. ربما أفضل منهم).

الدقائق التي بقيتها مترددا بين القيام بجولة أخرى في المزرعة أو الدخول إلى الغرفة.. انتهت حين أوصدت الباب، باب الغرفة، ملقيا جسدي على السرير. وعلى شاشة السقف البيضاء عشت مع سامي لازم تفاصيل هروبنا، أمه التي ضمتني عند باب الدار، جلستها الحميمة أمام عدة الشاي، اللحظات الأولى التي صافح فيها الماء جسدي ورفع عنه قذارة السجن، السماء التي انفتحت زرقتها أمامك حين استلقيت في باحة الدار وكأنك تراها للمرة الأولى.. ثم وسامي يتركك في سريره ذاهبا لتدبر أمر خروجكما. ها هو قد تركك مرة أخرى، أوصاك أن لا تبقى هنا طويلا. عليك هذه المرة أن ترتّب أمر خروجك وحدك. ماذا ستفعل؟ وكم ستبقى هنا؟ لا تدري.. حقا لا تدري، إنه في عداد الغيب الذي يجب أن لا تفكر فيه الآن، المهم أنه أصبح لك مكان يؤويك.. ومبلغ من المال سيعطيك إياه الرجل آخر كل شهر وبعد كل طلبية تقوم بتجهيزها.

الشاشة التي كانت تعرض أمامك هذه الأحداث لم تكن سقف تلك الغرفة المطلية حديثا.. بل هو سقف (الجينكو) الصدئ المخرّم في مواضع كثيرة بآثار مسامير أحسست بضوء الشمس النافذ عبرها يلسع عينيك حين أيقظك صوت الرجل وهو يضع أمام الباب علب التونة والجبن وعددًا من أكياس الخبز: (لا أدري إن كنتم الليلة ستتناولون عشاءكم هنا أم في عرض البحر، ولذا أحضرته لكم من الآن).

كان الوقت ظهرا. لم يتحرك أحد وكأن الأمر لا يعنينا، ربما تأكيد الرجل على قرب موعد الرحلة شلّ حركتنا وملأ نفوسنا خوفا من المجهول. هذا الإحساس عشته في كل تنقلاتي السابقة التي كنت أترك فيها مكانا أظنه أصبح مألوفا إلى آخر لا أعرفه. وإذ لم ينهض أحد قام الرجل الذي في الركن ليخطو باتجاه الباب ملقيا سيجارته من النافذة قائلا: (ما زال المساء بعيدا.. لا تصبحوا كالموتى منذ الآن. قد يكون غداؤكم هنا هو الغداء الأخير).

فترة ما بعد الظهر كانت فترة وجوم وانتظار قلق. ومع أن الجميع قد طرحوا أجسادهم على الأرض وبقي ثلاثة في الخارج مسندين ظهورهم إلى جدار الغرفة.. مع ذلك لم يغفُ أحد. الدخان المتصاعد من الركن، حيث ينفثه الرجل عبر أنفه وفمه دون انقطاع، يجد طريقه ببطء باتجاه النافذة والباب ليختلط في الخارج بالريح الرطبة المشبعة برائحة البحر، ربما ليست كذلك.. وأنوفنا تعطيها هذه الصفة كون هاجس ركوب البحر يستولي علينا في هذه اللحظات، نشعر وكأننا على شاطئه. الهدوء، المطعّم بالخوف، يستولي علينا ولا نجد له تفسيرا آخر، كنا بين حالم بالوصول وخائف من تضييع عالم قد ألفه. (سأغفو قليلا، أنتم أيضا يجب أن تفعلوا ذلك، فقد يكون أمامكم ليل حافل).. يتكلم من هناك وقد احتلّ زاوية الغرفة وكأنها قد خصصت له.. ثم سحق ما تبقى من سيجارته على الجدار طاويا ذراعه تحت رأسه .

(ليتني أستطيع، كنت، على الأقل، سأتخلص من هذه الهواجس المضطربة في رأسي. إن طول فترة الانتظار تقلقني.. تشعرني أن هناك أشياء ليست على ما يرام). إنه الشاب الجالس أمامي لافا ذراعيه حول ساقيه وقد ضمّ فخذيه إلى صدره. أراه بوضوح: عينان صغيرتان.. وجه يسرق خوف صفاءه.. لحية نابتة لم تحلق منذ أيام وشعر سارح يتجاوز أذنيه كان يرفعه عن جبهته وعينيه بين فترة وأخرى. لم يتحدث من قبل إلا عندما خرج ليتبوّل.. وكان أول من فعل ذلك. ثم أضاف.. بعد أن رفع عن جبهته، بكفّ كالمشط، خصلات الشعر المتدلية: (إنها المرة الأولى التي أكون فيها في مكان كهذا، ربما، بسبب ذلك، لست مطمئنا للأمر، هؤلاء المهربون يكذبون، فهم غير متفاعلين معنا، لا يهمهم إن كنت مطلوبا هناك.. أو أنك هارب بجلدك من محرقة أكيدة تنتظرك، كل همّه أن يستوفي منك أجوره ويلقي بك في زورق متهالك قد يتحطم بعد إبحاره بساعة، أمر كهذا يشعرني بالخوف من فقدان عالم أنشأته هنا وألفته، توهّما، بصعوبة، قد يكون أحدكم قال ذلك أو ما يشبهه، فكلنا عراقيون.. وظروفنا متشابهة إلى حد بعيد. لن أحدثكم عن الحرب.. فبعضكم قد عاشها وفقد فيها من فقد.. لن أحدثكم عن الذين اختفوا ولم يرهم أحد أو يسمع عنهم شيئا، فالخوف ما زال يمنعنا من ذكر ذلك مع إننا نبعد آلاف الأميال عن مصدره.. هل رأيتم هزيمة للروح أكبر من هذه؟ أنا غادرت العراق متأخرا، دفعت أربعمائة ألف دينار بصدر رحب.. هذا غير ما دفعته للحصول على كتاب دائرة التجنيد.. وما وضعته خلسة في جيب هذا وذاك، خرجت ومعي ما مكنني من ذرع شوارع عمّان والدخول إلى مقاهيها المتميزة طوال أشهر ثلاثة لم أفكر فيها بالبحث عن عمل.. تائها بين نضارة الوجوه هنا وجفافها في بلدي، لم أجد نساء يكنسن الشارع الكائن خلف مبنى المطاحن بحثا عن بقايا القمح والدقيق لمتطاير علّهنّ يصنعن منه ما يشبه الخبز لسد جوع أفواه أطفالهنّ، لا أحد يفتش ببراميل القمامة قريبا من المطاعم غير بعض إخواننا من العراقيين الذين امتهنوا بيع العلب الفارغة للمشروبات الغازية، كنت أرى بعض نسائهم يدخن الآركيلة في المقاهي أو يضعن علب السجائر الفاخرة على الطاولة وهن يمسكن واحدة منها بأصابع ملونة مشعة ويصففن، باليد الأخرى، شعورهن الطائرة.. فيما نساؤنا يفترشن الأرض في (سقف السيل) ويعرضن بضاعة لا يرغب فيها أحد غير العراقيين أنفسهم وعيونهن شاردة في كل اتجاه.. بحثا عن ماذا! لا أدري.. وربما أدري، لأكن حسن النية وأقول: لعلهن يلمحن رجال الأمانة قبل وصولهم حتى يتمكن من جمع بضاعتهن والاختفاء بين الأزقة. أكيد بعضكم كان هناك ورأى ما رأيته.. وربما أكثر منه. هل فعل الحصار بنا كل ذلك بحيث ألقى بنسائنا على قارعة الطريق؟ نعم.. ولا! هذه الحقيقة أدركتها وأنا في الداخل. قبل سفري عملت في تصليح أجهزة التبريد، وقد وفّرت لي هذه المهنة دخلا جيدا في فترة الحصار، فليس لأحد القدرة على إدخال سلعة جديدة إلى بيته إلا من رحم ربي، بل على العكس.. كل السلع التي تكدست في بيوت العراقيين في سني الحرب الأولى خرجت إلى الشارع، ففي الوقت الذي كانت فيه دماؤنا تسيل على أرض لم يسمع الكثيرون منا

بها يوما.. كانت محلاتنا ودكاكيننا تمتلئ بأنواع الزجاجيات والمواعين وملابس ولعب الأطفال وأشياء أخرى كثيرة.. كل ذلك لصرف النظر عن المحرقة القائمة على الحدود. لم تكن تجد أثرا للحرب في الكثير من مدننا غير التوابيت التي تأتي ملفوفة بعلم الوطن وكأنها رسل الموت. وكان الناس يشترون كل شيء حتى دون حاجتهم إليه.. تشبّث بالحياة في مواجهة الموت الماد لسانه اللزج عبر فم الحرب المستعرة، كل تلك الأشياء خرجت إلى الشارع من جديد.. صفّت على الأرصفة بذات أغلفتها القديمة المصفرة. حتى ما لا يباع قد تمّ بيعه. صديق قال لي إنه ذات صباح لم يجد شيئا يبيعه فحمل بعضا من كتبه بعيون مغمضة ونشرها على الرصيف وكان بينها كتاب يستهويه، ولسوء حظه أنه جاء من يريد شراءه، قال لي: أعطيته سعرا مرتفعا حتى لا يأخذه.. ولما ذهب خبأته. جار لي.. لا تبعد داره كثيرا عن دارنا.. باع أبواب بيته واحدا واحدا وانتهى به الأمر، قبل أن أسافر، إلى هدم سقف غرفتين من غرف البيت لبيع حديد التسليح وحجز عائلته كلها في الغرفة المتبقية دون أن يفكر في إرسال زوجته أو ابنته إلى عمّان أو إلى أي مكان آخر).

حين سكت.. سأله الرجل المتمدد في الزاوية، وهو يرفع رأسه على ذراعه.. لا أدري إن كان نائما فصحا لتوّه أم أنه كان يستمع إليه.. وكانت المرة الأولى التي أراه فيها مفارقا سيجارته، سأله:

- إلى أين تريد أن تصل؟
- أتعلم أني سألت نفسي سؤالا كهذا وأنا هناك قبل أن أسافر.. ثم تركت كل شيء وهربت. هنا.. أريد أن أصل إلى العالم الآخر على الجهة الثانية من البحر، من أجل ذلك نحن جميعا هنا. أمّا عندما كنت هناك.. فلم أكن أعرف حقا إلى أين أريد الوصول.. دوّامة وجدت نفسي داخلها دون أن أسعى لذلك أو أخطط له. حدث الأمر حين استشرتُ صديقا لي يعمل معاونا طبيا عن شيء يخلصني من الحساسية المزمنة التي تجعل أنفي يرشح وعيني تصبان، قلت له إني جربت الكثير من أنواع الحبوب دون فائدة، أرشدني إلى عيادة للتداوي، قال إن لديهم حقنة بمفعول يمتد لستة أشهر، قد تكون غالية بعض الشيء، قل لهم إنك من طرفي وسيساعدونك قليلا. كان الوقت ظهرا.. والعيادة التي وصفها لي تقع في طريق عودتي لموقع الباصات التي أستقلّها عائدا. كان باب العيادة مواربا فدفعته ودخلت لأجد في الداخل فتاة بصدرية بيضاء خلف منضدة تتناثر فوقها العديد من مواد التعقيم وجهاز لقياس الضغط.. على يمينها سرير كالذي يستخدمه الأطباء خلف ستارة من قماش أبيض متسخ، تبرز النظارة الملتصقة بوجهها، بعد أن رفعته إلي، عينين صغيرتين بلون البندق: أرسلني ....، قلت لها. (لحظة).. وقامت لتغلق باب العيادة الذي دخلتُ منه وتسحب الستارة ثم تفتح بابًا خلف كرسيها.. وغابت في الداخل. بقيت منتظرا أفكر، أين ستعطيني هذه الفتاة الحقنة.. في الوريد أم في العضلة.. وكشفتُ ذراعي مستعدا، (تعال).. سمعتها تقول، وعند الباب وقفت مشدوها لمّا رأيتها بعري مشع وسط ظلام الغرفة، سمّرتني الدهشة عند الباب.. ثم قادتني لاكتشاف جديد لم آلفه من قبل، حمت حوله كثيرا ثم هربت منه.. ربما لأني لم أكن قريبا منه للدرجة التي وجدت نفسي فيها وقتها، كل زهدي تلاشى، قوة الإمساك بشكيمة النفس التي كنت أتباهى بها تبخّرتْ أمام سطوة جسد أنثى يقدم لك نفسه. هل يعلم صديقي ذاك إلى أين أرسلني؟ هل تعمّد ذلك؟ ماذا سأقول له لو سألني؟ ما الذي يجعل فتاة، كالتي رأيتها، تقدم نفسها بهذه الطريقة!؟ هل تتحجج، هي الأخرى، بظروف الحصار وقسوته؟ أسئلة كهذه، وغيرها كثير، أصبحت ترهقني حين أخرج منها، ربما هي نتيجة صراع بين عقل رافض ورغبة مشتعلة وجدت لها متنفسا. وسط أجواء كهذه

نزَّ إلى رأسي سؤالك الذي ذكرت: (إلى أين تريد أن تصل)؟ ولم أكن أعلم حقا إلى أين، ما كنت متيقنا منه هو أني لن أمتنع من الذهاب إليها ما دمت قريبا منها، كنت متأكدا من ذلك، هنا بزغت فكرة السفر في ذهني فسافرت ليصدمني حجم الهوة بيننا وبين العالم.. حتى ذاك القريب منّا، أدركت زيف السعادة التي كنا نستشعرها هناك، التسكع في الشوارع والمقاهي الفاخرة غيّر الكثير من القناعات التي عشت عليها سنين، خرجت من دوامة لأدخل في أخرى أكثر عنفا، وها هي تلقي بي بعيدا عن كل ما ألفته.. أو ظننت أني ألفته. بصدق أقول لكم: أشعر، الآن، أنني ضائع أكثر من أي وقت آخر. بعض الضائعين بحاجة إلى من يجدهم.. والبعض الآخر بحاجة إلى أن يجدوا أنفسهم، ولا أعلم من أيهم أنا!

حين أنهى حديثه.. كانت الشمس قد انسحبت تاركة سماء بلون الرماد في حين بدت أطراف المزرعة البعيدة مظلمة وكأن المساء قد حلّ فيها قبل أن يصل إلينا. لم يعلق احد. أنا الآخر ربما كنت ضائعا أكثر منه. وعلى ما تبقى من ضوء ازدردنا عشاءنا بسرعة ليعود السكون يغّلفنا من جديد ونحن ننتظر الرجل الذي قد يأتي في أية لحظة.

(٢٠)

كأي صباح آخر يجيء.. ثقيلا.. دبقًا تحسه فوق جسدك الممدود على السرير، كجثة فوق دكة مغتسل، شابكا كفيك تحت رأسك وعيناك مغمضتان، لو فكرت بفتحهما الآن فستجد الضوء، الذي وجد طريقه من خلال النافذة مراوغا الستارة المسدلة، يلقي عليك ظلا شاحبا كما لو كنت مومياء فرعونية، أشياؤك الأخرى في محلها أيضا: حذاؤك، عند الباب، لم تنظفه ليلة البارحة، ما تبقى من عشائك، الذي تركته فجأة بعد شعور بالقرف أو الضجر أو الوحدة وربما بذلك كله وغيره ما زال مبعثرا على طاولة يتسلّق أحد أرجلها خيط نمل أسود لينتشر كبقع سود داكنة على سطحها المتسخ وفوق بقايا الطعام.. الشاي، أعددته ولم تشربه، ما زال، كما تركته، على الموقد، والقدح المملوء نصفه بالسكر ربما يكون النمل قد احتله الآن، ثيابك مرمية على الكرسي البلاستيكي الوحيد، كوحدتك، في حين أن القطعة الأخيرة ستكون في مكان ما على الأرض بعد أن طوّحت بها بعيدا. في الخارج، إن خرجت، ستتبع آثار أقدامك المحفورة على التراب منذ قدومك.. سترى الوجوه ذاتها منتشرة في نفس الأماكن حيث تراها كل يوم.. وبالثياب نفسها. ماذا تحتاجون.. كيف تسير الأمور.. هل الجميع حاضرون.. قل لأحدهم أن ينظف هناك.. الأدوات اجمعوها بعد أن تنتهوا، لا تبق مرمية هكذا.. هذه العبارات تكررها يوميا حتى أن بعض رؤساء العمال أخذ يجيبك عنها قبل أن تسأله. هل تجد، بعد كل ذلك، جدوى من فتح عينيك وخروجك؟ ولو بقيت هنا.. هل ستكون هنا حقًا؟ أم أنك ستحلق في سماء ليس لها أول ولا آخر؟ ستنتصب أمامك صورة علي طرفي وهو يبتعد ويتركك هنا وحيدا، أهلك هناك: بيت ممتلئ بنساء ملفوفات بعباءاتهن السود.. واحدة تدخل وواحدة تخرج: ألم تجدوه؟ ألم يبعث لكم خبرًا مع الخارجين؟ ألم يره أحد منهم هناك؟ ويخرجن.. بعضهن غير مصدقات، يحدثن أنفسهن أن أهلك يكذبون.. فهم يعلمون ولا يقولون! ليتهم يعلمون. ستعود إلى الطابور الذي حشرت فيه بعد أن أنزلتكم سيارات (الإيفا) بباب المعهد حيث تم تسجيل أسمائكم وسوقكم إلى داخل قاعة كبيرة أشعرتك الرائحة المنبعثة من الأجساد المكدسة فيها بالغثيان قبل أن تدخلها، التدافع هربا من الضرب بالقابلوات المجدولة أوصلك إلى منتصف القاعة، ليلتها بقيت واقفا حتى الصباح، مساحات البلاط الصغيرة التي ظهرت بعد استيقاظهم مكنتني من الجلوس، (حاول أن تنام قليلا فقد بقيت واقفا طوال الليل).. قال لي ذلك شخص بجانبي وهو يزحف قليلا إلى الخلف مما أتاح لي إلقاء جسدي على الأرض ملتفًا كدودة قز.

أعادني صوت طرق على الباب ممددا على السرير. هواء الغرفة راكد يشعرني بالاختناق حتى أنني كنت أتنفس بصعوبة. وقبل أن أجيب كانت الباب قد فتحت:

- أعتذر، فقد طرقت الباب ثلاث مرات.. ولما لم تجب فتحتها. هل أنت بخير؟
- بخير. أشعر بتعب يهدّ جسدي ويمنعني من النهوض. كيف تسير الأمور؟
- مثل الأيام السابقة. ارتح اليوم إذا أردت.
- ربما أخرج بعد قليل. أحس أنني أفضل الآن.
- كما تشاء. هذه الفتاة تقول إنك طلبت منها تنظيف المخزن، وقد أحضرتها بنفسي.
- صحيح.. فهو بحاجة إلى تنظيف وترتيب الكثير من الأشياء المبعثرة.

عبر الباب الموارب كنت أراه يبتعد معها باتجاه المخزن بعد أن رميت إليه بالمفاتيح. ولم يكن ذلك صحيحا.. كنت ما أزال جالسا على حافة السرير أنظر إليهما يبتعدان محاولا تذكر فيما إذا كنت قد طلبت منها فعلا ذلك أم لا، ما أتذكره هو أني قلت لها إنه بحاجة إلى ترتيب.. هذا كل ما قلته بعد أن أبدت هي رغبتها في ترتيبه، فالوقت الذي مرّ على ذلك ليس طويلا حتى تصاب ذاكرتي بالصدأ، ثلاثة أيام أو أربعة.. وها هي الفتاة الأهوازية، التي لم تعرف اسمها

بعد، تختلق عذرا لتكون قريبة منك، هل أوحيت إليها أنت بذلك حين قلت ما قلت؟ هل تنظران، كلاكما، إلى نقطة واحدة تريدان الوصول إليها.. أم أنه ذهنك الذي يصوّر لك ذلك كما يقود قدميك باتجاه باب المخزن المشرع؟!

هذا ما كان يدور في ذهني بعد إن استبدلت ثيابي وخرجت. ولما كنت ما أزال بعيدا، بعض الشيء، عن باب المخزن انعطفت في أول ممر صادفني مغيّرا، هذا الصباح، طريقي المعتاد متجها صوب البيوت البلاستيكية. كان الجو، على عكس ما أحسست به، رائقا.. صافيا كماء زلال.. كقطعة فضة مشعة، لا أثر للتعب الذي زعمت، قبل قليل، أنه يهد جسدك، تبدو على غير العادة، كطائر محلق يتمتع بمنظر الخضرة المفروشة تحته، تستنشق عطرا لا تعرف مصدره.

على كثرة طوافي في المزرعة.. لم أرها يوما بمثل هذا الزهو، إنها روحك التي اخضرّت بعد أن سكبت هذه الفتاة على جذورك العارية المتيبسة قطرة ماء واحدة. ولكن إحساسك هذا سرعان ما سيزول فتعود السماء قريبة من رأسك حتى كأنها تطبق على أنفاسك.. حاول أن تنسى ذلك، الآن على الأقل، وتبقى محلقا، ولو هذا الصباح فقط، في هذه السماء الواسعة الممتدة إلى اللانهاية.

لم أتوقف طويلا في مكان محدد. كان الجميع يعملون.. مثل ذهني تماما. لا أعرف كم من الوقت كان قد مرّ حين ناولني المفتاح قائلا: كيف تشعر الآن؟ قلت له إنني قد أعود إلى الغرفة.. وإن احتجتم شيئا فتعال إلي.. ثم تركته وذهبت. البوابة المشرعة للمخزن أراها بوضوح في نهاية الطريق الطويلة الممتدة أمامي. سرتُ على مهل كمن ينقل خطواته بصعوبة في حين كان بإمكاني العدو كحصان سباق، ربما لأوهم الرجل، حين التفتُّ وجدته ما زال واقفا ينظر إلي، أنني تعب فعلا.. ولأتخذ قراري فيما إذا كنت سأدخل المخزن أم أنعطف إلى غرفتي. إلا أنني دخلته.. خطوات قليلة ووقفت، لسعت جسدي برودة الهواء داخله. بعض الأشياء كانت قد حركت من أماكنها وأعيد ترتيبها من جديد، الحاجات الكثيرة التي كانت مبعثرة على الأرض اختفت فبدت أرض المخزن الخرسانية نظيفة أكثر من أي وقت آخر دخلت فيه إليه، إلا أنني لم أرها، قد تكون هناك.. في الزوايا البعيدة التي تختفي عن بصري، ولم تكن هناك.. بل كانت قريبة أكثر مما توقعت، حين ناديت بصوت عال: هل أنت هناك.. انتصبت من خلف صفّ من أكياس السماد، كان الإشارب يطوق عنقها فبدا شعرها منسدلا فاحما كليل داج:

- أعتقد أن لي اسما. ينادونني سارا.
- لم أكن أعرف ذلك.
- وهل كنت تظنني بلا اسم!
- عنيت أني لم أكن أعرف اسمك.
- حسن.. ها قد عرفته الآن.
- هل انتهيت؟
- ربما بعد قليل. أرحت جسدي قليلا بعد أن أكلت شيئا. شعرت بأن ظهري انقطع. العمل في المزرعة أخفّ كثيرا من هنا ولكن .... كيف ترى المخزن الآن؟
- أفضل من قبل.
- هذا يعني أنك راض عني.
- نعم.. راض عن عملك.
- وعني؟

ولمّا لم أجد ما أجيبها به انسحبتُ. لم أتوقع أن حوارا كهذا سيدور بيننا. كانت أكثر جرأة مما توقعت.. حتى مني. تبعتني إلى البوابة:

- أريد أن أقول لك شيئا.
- ماذا؟
- أترى البيوت البعيدة التي هناك.. أنا وأمي نسكن هنا. المبلغ الذي أتقاضاه عن عملي هنا ليس بالكثير حتى أنه لا يسد حاجتنا أحيانا. ما أردت قوله هو أن بإمكاني عمل خدمة لك، إذا أحببت، كأن أغسل ثيابك.. أو أي شيء آخر أستطيعه لأحسّن دخلي قليلا.
- فهمتك. سأخبرك إن احتجت إلى شيء.

عادت، هي، إلى الداخل وذهبت، أنا، إلى غرفتي. مجموعة البيوت التي أشارت إليها تتوزع بعيدا، قد تسير هذه الفتاة، وربما غيرها أيضا، نصف ساعة للوصول إلى هنا، بينما يصل آخرون، من أماكن لا أعرفها، على درّاجاتهم التي يتركونها عند البوابة الكبيرة. دخلت غرفتي وأبقيت الباب مفتوحا، على غير العادة، ورميت جسدي فوق السرير.

(٢١)

كنت غافيا، وأنا جالس.. ذراعاي معقودتان على ركبتي ورأسي مستقر فوقهما، حين لكزني الشخص الجالس بجانبي بمرفقه، لم يكن نوما عميقا فاستيقظت بسرعة، كتفاي ثقيلتان وظهري كخشبة منحنية. كان الوقت قد جاوز انتصاف الليل بساعة أو أكثر:

- هناك حركة ولغو جهة السرادق!

ومع أنه كان يهمس.. إلا أن جميع من في الغرفة قد سمعه فهبوا واقفين. هل كانوا كلهم نائمين فاستيقظوا الآن! أم أنهم قد سمعوا ما سمع وكانوا ينتظرون تأكيدا؟ الاثنان اللذان كانا خارج الغرفة دخلا بينما بقي الرجل الذي يحتل الركن ممددا ووجهه جهة الجدار. هل نوقظه؟ ترددنا. ولما لم يتحرك أحد وكنت أقربهم إليه أيقظته بصعوبة.. إذ كان غارقا في نوم عميق. قال لي وهو يدعك عينيه الصغيرتين براحتيه دون أن يفتحهما:

- ماذا؟
- هناك حركة ولغط جهة السرادق.
- لو تركتني قليلا.. فقد كنت في سعادة لم أشعر بمثلها يوما. هذا البحر اللعين يفسد علينا حتى أحلامنا.

ولما قال ذلك هبّ واقفا ليخطو إلى الخارج، بعد أن أشعل سيجارته، متجها نحو السرادق. كم هي طويلة لحظات الانتظار. كنّا نراقبه يبتعد. الظلمة المنصبّة من كل شيء تجعل الأشجار تبدو كأرجل أشباح ضخمة رؤوسها في السماء.. فيما كانت معالم الرجل تغيب عنّا شيئا فشيئا، تبتلعها الظلمة حتى لم يبق منه غير جمرة سيجارته.

انشغل الآخرون بتفقّد أكياسهم، فتحها.. معاينة ما بداخلها.. وربطها من جديد. وكنت مشغولا بخوف يشلّني كما شلني هناك، في المطار، حين وقفتُ أمام كابينة المغادرين بحقيبة صغيرة وجواز سفر مزوّر، بالكاد أمنع نفسي من الارتجاف، عيناي تبحثان عنها علّي أجدها في مكان ما، ولم تكن هناك، يتقدم الطابور ببطء ويسحبني معه، وحين رأيتها تدخل من إحدى البوابات شعرت كأن أحدا قد صبّ على رأسي ماء باردا غمر جسدي كله فهدأت، كانا.. هي والشاب الذي يسير بجانبها ببذلة بلون كحل عينيها.. وجه حليق طلق وعينان تمسحان كل اتجاهات الصالة على عجل.. يتحدثان بود ظاهر حتى وصلا إليّ، عانقني الرجل وكأنه يعرفني.. وبقي يحدثني حتى جاء دوري، تحدث بالفارسية ،التي استمرت خصومتي معها حتى غادرت، مع الشخص الجالس داخل الكابينة.. وكان هذا الأخير يضع الأختام على جوازي وهو يحدثه، وعندما ناولني الجواز أخذته وابتعدت بسرعة فيما بقيا يتحدثان.. ثم ضحكا بصوت مرتفع وأشار له من خلف الزجاج وتبعنا، أنا وهي، حيث كنا نقف بعيدا ننتظره:

- من أين تعرفين هذا؟
- أعرفه.. لا عليك. الجواز بيدك الآن وستغادر بعد قليل.. أليس هذا ما كنت تريده.
- ....
- هل ستذكرني؟
- كلما ناداني أحد بهذا الاسم، الذي اخترته لي، سأذكرك.

دقائق قليلة أخذها كل ذلك في حين أني تصورتها عمرا بأكمله. تنفست بعمق، فقط، عندما تركت الطائرة الأرض. (تأخّرَ).. قال أحدنا.. ولم يجبه أحد، فكلنا كان ينتظره حين ظهر فجأة كجنّي تتفتق عنه الظلمة أو تلده، إحدى هذه الأشجار الكبيرة، من رحمها:

- صاحبكم هناك ومعه عدد من أصحابه. بدأوا بالأفارقة أولا.. فعددهم كثير، أنتم موضوعكم سهل.. مجرد ستة أشخاص ستغادرون مع آخر مجموعة، هكذا قال لي. عليكم أن تستعدوا، فالموضوع لم ينته.. وإنما بدأ الآن.

كان اللغو الصادر من السرادق قد بدأ يخفت مع كل مجموعة تغادر. (سينقلونهم على مجموعات حتى لا ينكشفوا. لن تسيروا طويلا.. فالمكان قريب). تهدأ الريح فيختفي الحفيف الذي تصدره الأشجار مما يجعل رائحة البحر ورطوبته تزحفان على كل شيء. بقينا ننتظر آخر مجموعة تغادر حتى نكون بينها، ولكن ذلك لم يحصل. تعبت أرجلنا من الوقوف، جلس بعضنا على الأرض.. وعاد آخرون إلى داخل الغرفة ليطرحوا أجسادهم هناك وأكياسهم تحت رؤوسهم فيما بقي هو واقفا بعيدا عنّا بعض الشيء وعيناه مزروعتان على السرادق وفي الاتجاهات كلها، السيجارة لا تفارق شفتيه حتى وهو يتحدث، (هذا التأخير يقلقني).. وكان صادقا في حدسه، فهو أول من رآهم حين طوّقوا السرادق، (اهربوا) صرخ بنا بعد أن لفظ السيجارة من فمه، وكنت أقربهم إليه فتبعته، تفرّق الآخرون كل في الطريق التي رآها أمامه وظن أنها ستخلصه، إلا أنني أضعت أثره بعد أن التوت قدمي وسقطت فلم أستطع النهوض، في تلك اللحظات عادت إلى ذهني صور هروبي الأول مع سامي.. الليل كله ونحن نركض، هنا.. كل هذه الأشجار الكثيرة حولي لم تستطع أن تخبئني، كما فعل النخل هناك، عن عيون مطاردي.. وكان شخصا واحدا يحمل بيده قطعة من أنبوب بلاستيكي رفيع:

- لا تحاول الهرب.. فالمنطقة كلها مراقبة.
- لن استطيع، ربما كسرت قدمي.

سرت إلى جانبه متحاملا على قدمي التي تورّمت بسرعة. وكان يبدو، وهو ينفذ مهمته، كمن يحتسي قدح شاي في مقهى على الساحل، لا شيء من آثار السلطة عليه.. زيّه مدني.. واللحن الذي يدندن به، وهو يسير، يجعله أشبه بالحالم. (شِنْ جنسيتك)؟ عراقي.. قلت. أخذني عبر طريق يعرفها هو. في الخارج.. عدد من الحافلات الصغيرة مكتظة بالبشر وسيارة شرطة واحدة. حُشرت في الداخل.. وهناك رأيت اثنين ممن كانوا معنا في الغرفة. قال أحدهما إن البقية ربما استطاعوا الهرب، ولم يكونوا كذلك، فقد جاءوا بهم إلى الموقف قبيل الصبح. اختفت رائحة البحر لتحلّ محلها رائحة أجساد منكمشة يلوذ بعضها ببعض. ما تم بعد ذلك من إجراءات.. بدت شكلية أكثر منها حقيقية، فبعد عرضنا على محقق وقاض أطلق سراح البعض وأوقف كثيرون، وكنت ممن أطلق سراحهم بعد دفع غرامة بسيطة، بصمتُ على أوراق لم أقرأ ماذا كتب بها، (اذهب وعالج قدمك).. وسلمني، ضابط المركز، إلى شرطي شاب كي يأخذني إلى بنغازي، حيث محل إقامتي، كي يطلق سراحي من هناك. دفعت أجرته وجميع مصاريفه. في الطريق.. أخبرني أنهم يلقون القبض على الكثيرين ممن يحاولون الهرب عبر البحر، بعضهم يسجن.. والبعض الآخر يطلق سراحه بعد أن تدوّن له إفادة تمكن القاضي من ذلك، (ربما يدفع غرامة ويخرج كما حصل معك. هل تعرف أحدا هنا.. أو اتصل من أجلك شخص ما)؟ لم يحصل أيّ من ذلك. أما أنا.. فأظن أنهم لا ينوون الاحتفاظ بكل من ألقوا القبض عليهم، يكفيهم البعض ليثبتوا أنهم فعلوا شيئا أو اتخذوا إجراءً بعد بلاغ ما عن زوارق ربما تنطلق من هذه المنطقة أو تلك مع أن بعضهم، مثل الكثير من الناس هنا، يبدي تعاطفا واضحا معنا كعراقيين.. هذا كل ما في الأمر.

في بنغازي، وبعد أن أتمّ إجراءات إطلاق سراحي، لم يعطني جوازي إلا بعد أن أعطيته أجور نقله ليعود.. ومبلغًا آخر قال إنه سيشتري به دخانا خاصا به، قال إنه سيشتريه بنفسه. بعدها ودعني كما يودع صديقا.. ثم تركني ومضى.

كانت قدمي مربوطة ببقايا قميص، كنت أحتفظ به مع سروال جينز وقطعتي ملابس داخلية في الكيس الذي أحمله معي، مزّقته لهذا الغرض. العراقيون الأربعة، الذين كانوا معي في المزرعة ينتظرون الإبحار.. ورأيتهم فيما بعد في الموقف، لا أعرف ماذا حصل لهم، لم أر أحدا منهم بعد ذلك، ربما أطلق سراحهم أيضا.. لا أدري. ما أعرفه هو أننا جميعا، ونحن هناك، بحثنا عن الرجل صاحب السيجارة.. ولكنه لم يكن موجودا بين الموقوفين، وكان الوحيد من بيننا الذي تمكن من الهرب.. هذه الحقيقة أشعرتنا بالحزن والفرح معا.

- علي طرفي يسلم عليك.. فقد اتصل أمس، كان في طريقه إلى شمال العراق. سأل عنك.. وأوصاني بك كثيرا. كيف تسير الأمور؟

لم تتطور علاقتي كثيرا بالرجل وإنما بقيت محصورة عند حدود العمل حتى أني لم أدخل بيته مرة أخرى منذ أن جئت إلى المزرعة، فهو، على ما يبدو، لا يملك الكثير من الوقت لإقامة علاقة مع مشرف يعمل في مزرعته قد يكون فرض عليه فرضا.. وكان ذلك يشعرني بالحرج كوني موجودا في مكان ما لا عن حاجة إليّ فيه.. وإنما من أجل شخص آخر طلب ذلك، هذا الإحساس جعلني أبذل الكثير من الجهد حتى أملأ مكان مشرف في مزرعة.. وحتم عليّ التفكير الجاد لمغادرة هذا المكان بأسرع وقت كما قال لي سامي.

الأحاديث، التي كانت تجري أثناء تواجدي بين العاملين، كانت حول العمل.. وإذا تجاوزتها قليلا فلا تتعدى الشكوى من قلة الأجور وطول ساعات العمل، وربما يحدثك أحدهم عن الوضع في بلدك كما جاء في نشرة أخبار قد يكون سمعها، عرضا، يوم أمس. وحدها سارا كانت تشدّني، وكنت، إن لم أجدها، أبحث عنها طويلا في كل أرجاء المزرعة دون أن تكون لي الجرأة للسؤال عنها. لطالما سألت نفسي: ما الذي تريده هذه الفتاة منك؟ أضعت الكثير من الوقت في وضع إجابات كان بعضها مضحكا.. كل ذلك فعلته هربا من سؤال يلحّ عليّ، حين أكون وحيدا.. ملقى على السرير الحديدي وعيناي تتفرسان في سقف الغرفة.. أو حين تحملني قدماي، كما أنا الآن، إلى ممرات المزرعة الأقل اكتظاظا وكأنها شبه فارغة، كثيرا وأحاول دفنه: ما الذي تريده أنت منها؟ انعطفتُ إلى داخل بيت زجاجي مخصص للزهور ونباتات الزينة حيث اعتدت قضاء بعض الوقت وحيدا مع ألوان الطيف كلها وقد صفّت في تتابع رائع في أحواض من بلاستك بلون قاتم، غالبا ما يكون هذا المكان خاليا في مثل هذا الوقت، إلا أنه، اليوم، لم يكن كذلك:

- أنت هنا اليوم!
- أنا هنا كل يوم.. ولكني كنت أنهي عملي وأعود قبل أن تأتي. قد أكون فكرت بانتظارك اليوم. كيف وجدت البلد؟
- لم أرَ منها شيئا غير الطريق التي جئت فيها.. وهذه المزرعة. (أردت أن أقول لها: وأنت.. ولكني سكتّ).
- ألا تشعر بالضجر! ألم تراودك رغبة في اكتشاف شيء.. المكان مثلا؟
- لم تنشأ ألفة بعد بيني وبينه، كما أني لا أستطيع تقمص دور السائح لأني لست كذلك. غرفتي هي الشيء الوحيد الذي ألفته هنا وأشعر بالحاجة إليه. (أردت أن أقول لها: وإليك.. ولكني سكت).
- أنهيت عملي هنا. سأذهب. هل من شيء أصنعه لك؟
- لا. (وكانت بداخلي نعم) بإمكانك الذهاب.

كانت تقف أمامي بجلباب مفتوح يكشف عن ثوب يصل أسفل ركبتيها بشبر عليه كل ألوان الزهور المنتشرة حولها مما يجعلها جزءا من البيت الزجاجي. أتابعها وهي تسحب طرف الإشارب المتدلي من جيبها لتعيد ربط شعرها الفاحم المزين بخصلات شقر.. ثم وهي تزرر الجلباب. (الجو هنا حار ولا استطيع العمل بكل هذه الثياب). خرجت. تابعتها إلى الباب حتى إذا غابت عن بصري حملت جسدي إلى المصطبة الخشبية الموضوعة في آخر البيت حيث اعتدت الجلوس. رائحتها ما تزال هناك.. تملأ المكان كله. كيف لم أدرك ذلك وأنا جالس هنا يوميا هاربا من كل شيء ومتذكرا كل شيء! ضاعت رائحة الزهور التي كنت أملأ كل مسامات

جسدي منها.. أو أنها بقيت، هي ذاتها، مع رائحة أنثى تحاول اختراقك فتستنفر، رغم عجزك ، ما تبقى من دفاعاتك كلها متمنيا أن تنهار، كلها، دفعة واحدة متيحة لك فرصة التحليق، ولو مرة، في عالم آخر غير عالمك الذي، رغم هربك منه، ما زال.. وسيبقى معششا في داخلك.. يقضمك شيئا فشيئا حتى يأتي عليك.

أرحت جسدي على المصطبة.. وربما غفوت، لا أعرف كم من الوقت قد مرّ، إلا أنني عندما خرجت كان العمال قد بدأوا يغادرون. قمت بجولتي المعتادة، كما في كل يوم، ثم انسحبت إلى غرفتي.

غدًا، الجمعة، سيكون أمامي يوم طويل خصصته لتنظيف الغرفة.. غسل ثيابي ونشرها على حبل ربطته بين نافذة الغرفة وشجرة قريبة.. أجهّز لي لقمة بشكل أفضل مما أفعله كل يوم، فأنا أملك الوقت.. بل أحاول تزجيته بأي شكل حتى يمضي.. ولا يمضي. أنام الظهر، وأقضي العصر متجولا في أرجاء المزرعة التي تبدو، وهي خالية، أكثر سحرا من كل يوم، لا شيء يعكر صفو استماعك لموسيقى تعزفها أوركسترا مجهولة، تصغي إليها بكل جوارحك، تحاول فهم لغتها. يداك في جيبك. الطريق الترابي يمتد أمامك طويلا متعرجا تخفي عنك أشجار النخيل المتراصة على الجانبين نهايته. تتعب فتستريح. تسند ظهرك إلى جذع نخلة حنون فتدلي إليك عذوقها. قبل أن تمد يدك يأتي من يحملك ويلقي بك هناك: وسط قاعة تغص ببشر رؤوسهم معصوبة.. أجسادهم مملوءة بكدمات زرق وحمر. يهمس سامي في إذنك: أهرب معي.. فتتبعه. تتقطع أنفاسك وأنت تركض. تسمع أصواتهم خلفك. لو مدَّ أحدهم يده لأمسكك. يطرق سامي، بكلتا يديه، على الباب ولا أحد يفتح. يطرق. أمي.. هذا أنا قد عدت. لا أحد يفتح.. لا أحد. يصلون إليك. تعجز رجلاك عن الركض فيمسكك أحدهم من ذراعك. تحس بثقل يده وهو يهزك بعنف:

- ما بك ! ما بك؟!

كان المساء قد حلّ. الضوء البعيد يخطو عبر باب الغرفة المفتوح ليرسم خطا مضاء يمتد من الباب وينتهي عند حافة السرير حيث كانت واقفة وهي تمسك بذراعي. جسدي سابح بعرق بارد. انحنت لتضع راحة يدها الأخرى على جبهتي:

- أنت محموم.
- سارا!
- نعم سارا.
- ماذا تفعلين هنا؟!
- أنت طلبت مني أن احضر مساءً.
- أنا!
- نعم أنت. قلت لي قبل أن أخرج من بيت الزهور: سأنتظرك في الليل.
- ....
- طرقت الباب عدة مرات وبقوة، ولما لم تفتح دخلت.
- ....
- هل أذهب؟
- لا.

(٢٣)

حين وقفت على الباب لبرهة، قبل أن أتحرك باتجاه المحل القريب، بدت الطريق أمامي هي ذاتها التي رأيتها في أول صباح لي هنا. المحلّ، المصبوغ بابه بالأخضر، ما زال موصدا، لا أتذكر أني رأيته يوما مفتوحا. مجموعة الكهول، حيث ظلّ الجدار يمتد بعيدا متجاوزا حافة الرصيف، يجلسون، كما في كل يوم، متحلّقين حول لعبة (السيزا) مرتفعة أصواتهم مع كل حجر يتم تحريكه.. فيما تعطي المياه المنسابة إلى الشارع من تحت أبواب الحديد الخارجية انطباعا بأن النساء قد أنهين أعمال تنظيف الدور بوقت مبكر.

أنقل قدمي، المثقلة بالجبس، ببطء قاصدا المحل المفتوح عند ناصية الشارع. (لا باس.. لا باس). (كتّك)؟ أخبرتهم أني قد وقعت وكسرت كاحلي.. وهذا هو السبب الذي جعلني أختفي عدة أيام. ربما في الأيام القادمة سأفتحه. ثم ابتعت بعض الحاجات وعدت.

(الصابري).. هو اسم الحي الذي أسكن فيه وحيدا في غرفة اقتطعت قسرا من منزل وعمل لها حمام أسفل سلم صاعد وباب فُتح على فسحة صغيرة مكشوفة مجاور السلم عمل لها، هي الأخرى على عجل فيما يبدو، باب من الحديد يؤدي إلى الخارج بعد أن أغلق الباب الذي كان يطلّ على داخل المنزل والذي بإمكان أي كان يدخل غرفتي أن يحدد مكانه. أما كيف وصلت هنا.. فتلك حكاية أخرى بطلها سائق سيارةالأجرة التي أقلّتني من منطقة (الفندق) حيث تتوقف الحافلات القادمة من الأردن عبر مصر، إلى فندق طلبت منه أن يكون مناسبا. في الطريق أخبرني أنه يستطيع تدبّر سكن لي:

- يا راجل خير لك، تدفع بالشهر خمسين جنيه بس.. ما في فندق أقل من خمصطعش جنيه بالليلة.

وكنت خائفا من هذا الود المفاجئ الذي يظهره الرجل لي فلم أذهب معه. أخبرته أني، ومنذ أيام، على متن هذه الحافلة وبحاجة للراحة ليوم أو يومين قبل أن أفكر كيف سأدبّر أموري هنا. ولمّا أوصلني إلى فندق يعرفه وحمل حقيبتي بنفسه.. أوصى الشاب، الذي يجلس في ركن الاستقبال، عليّ كثيرا.. وقال لي وهو يخرج:

- توّه انجيك بكره.

عبر نافذة الغرفة، المطلة على شارع كانت الحركة فيه قد خفّتْ ليلة أمس فأوصدتها وسحبت الستارة قبل أن ألقي جسدي على الفراش لأغفو لحظات ثم أصحو.. أخلع ثيابي وآخذ حماما سريعا عدت بعده إلى النافذة ثم إلى الفراش لأنام طويلا هذه المرة، كان بعض الصباح قد استيقظ قبلي ودخل، وجدته متشبثا بالجدران المطلية بلون سماء صاحية وقت الضحى.. بحقيبتي التي ما زالت واقفة وسط الغرفة وكأني وصلت للتو.. ثيابي الملقاة على ظهر كرسي موضوع أمام مرآة مثبتة على الجدار وفيها الستارة مسدلة.. زاحفا نحو جسدي المتكوّر على السرير ليوقظه. نهضت بتثاقل متجها إلى النافذة، أزحت الستارة فبدا الشارع ضاجا بكل شيء: أصوات منبهات السيارات المتدافعة بفوضى تختلط مع نداءات الباعة المحتلين الرصيف وحافات الطريق، فتيان صغار يدفعون عربات وراء بعض المتسوقين، وحين فتحت النافذة أصبحت كما لو أنني وسط الشارع .

بدد الهواء الأفريقي المندفع، والذي أستشعر رائحته لأول مرة وأنا بهذا الصحو، هواء الغرفة الثقيل باعثًا في جسدي نشاطا أحسه قد بدأ يدب فيه.

طوال الطريق بين نويبع.. إذ تم حجزنا في الميناء، ريثما يتم الانتهاء من تدابير وإجراءات نقلنا في مخزن كبير قُفل بابه ووضع لحراسته عدد من العساكر المسلحين، ولم نحصل فيه على شيء، حتى الماء كان مالحا وكأنه قد ضخّ من البحر مباشرة. تذكرت بلدي الذي احتضن يوما عدة ملايين من مواطني هذا البلد، وكانوا يعاملون فيه أفضل منّا. والسلّ وم لم يسمح لنا بمغادرة الحافلات، كنّا محجوزين، جوازاتنا بحوزة شرطي أركب معنا ولم يسلمها لنا حتى اجتزنا الحدود المصرية باتجاه (إمساعد) الليبية. في مكانين فقط توقفت الحافلات: مرآب لتبديلها وكان مطوقا بشرطة مسلحين وكأننا مجرمون محكومون يخشى فرارهم وليس مجموعة من العراقيين لا يلبث الكثير منهم أن يعود، بعد أيام، فسفرهم فقط من أجل الحصول على إقامة جديدة في الأردن أمدها ستة أشهر.. والمرة الثانية كانت في مطعم على الطريق دفعنا فيه حتى ثمن قطعة الصابون الموضوعة على المغسلة.

كنت ما أزال واقفا عند النافذة حين طرق الباب ثم فتحه:

- خير. ما زلت راكدو؟

وكان هو. لم أتوقع مجيئه. إذ أني كنت قد نسيته أصلا. أخبرني أنه كلّم (العجوز) صاحبة الدار وربما تكون قد نظفتها الآن. خرجت معه، فما أحمله من مال لا يمكنني من البقاء في الفنادق طويلا. في الطريق.. أدركت أنني في أفريقيا حقا، فذوو البشرة السمراء الداكنة ينتشرون في كل مكان، يتجمعون في الساحات، على أبواب المحلات، تلفظهم الطرق الفرعية إلى الشارع الرئيس. نظرت إلى الرجل: كان يلبس الزي العربي ولون بشرته مثل بشرتي. سألته:

- هؤلاء السمر ليبيون؟
- مش ليبيين يا راجل، أفارقة من تشاد.. النيجر.. ومن الدول هذي. يجو تهريب على ليبيا، يشتغلوا، يجمعوا كم من قرش ويرجعوا. وقسم منهم يروحوا على أوربا عن طريق البحر. هلكونه (العبيد) هذيله. وممكن يكونوا ليبيين.. بس مش أصليين، (عايدين مهجر).

استدارت السيارة حول ساحة واسعة ثم انعطفت يمينا باتجاه حيّ سكني لتتوقف، ليس بعيدا عن رأس الطريق الفرعية، أمام باب طرقها في حين كنت مستندا على مقدمة السيارة وعيناي تسرحان بعيدا. لم أتفحص الدار، الغرفة، طويلا، فما يعنيني هو أن أجد مكانا ألوذ فيه ريثما أجد لي مخرجا من هنا. ولما ناولني المفتاح قال:

- الضي والمويه مش شورك. بس الأجرة تدفعها مقدم.

حين وضعت الحاجيات التي أحضرتها من الدكان على الطاولة سحبت قدمي الثقيلة لأجلس على حافة السرير في الغرفة ذاتها. لا شيء جديد غير الثلاجة الصغيرة التي اشتريتها من مصلح ثلاجات على الشارع الرئيس وطاولة خشبية كانت مرمية في الخارج حملتها إلى الداخل بعد أن أصلحتها. هذا السرير كان موجودا أصلا في الغرفة.. أنظر إليه فيعيدني إلى مزرعة الأهواز.. الغرفة التي تقاسمتها مع ثلاثة آخرين في سوريا.. القبو الذي عشت فيه في الأردن، لا شيء مختلفا حتى كأنه هو.. وكأني احمل سريري معي أين ما ذهبت، هل هي مصادفة أم مفارقة؟ أم تراني ما زلت في نفس المكان وأن ما يتغير هو فقط شريط الصور الذي يعرضه السقف لي كلما وضعت رأسي على الوسادة؟!

- ألا تفكر باستبدال هذا السرير، لم يعد يتسع لنا. إذا أبقيته فسنتصارع، أنا وأنت، للحصول على مكان فوقه، فليكن، فقد تصارعنا على الحدود ثماني سنوات ثم عاد كل إلى مكانه.
- وهل تظنّين أن الحرب كانت من أجل الحدود؟
- وهل تعتقد أننا سنتصارع من أجل مكان على السرير! الحرب كانت على الحدود وليس من أجلها، وحتى كلامي هذا غير دقيق، فنحن، أهل المدن الحدودية، عشنا الحرب في بيوتنا. أية بائسة أنا.. تكتشف متأخرة، كعادتها، أن مَن ظنته مخلّصا بحاجة إلى من يخلصه!

تصمتُ. أحس سخونة الجسد وطراوته. أنفاسها تلفح رقبتي. في الخارج.. كما في كل مساء.. كل شيء هادئ، حتى الريح توقفت ليختفي معها حفيف الأشجار الذي كان يصلنا كالهمس. ولمّا تأكدتُ أنها نامت نهضت، قرّبت الكرسي من السرير وجلست أنظر في وجهها وهي نائمة، وكانت المرة الأولى التي أراها فيها بكل هذا الصفاء.. امرأة أخرى غير تلك التي أراها في المزرعة أو في بيت الزهور المتطرف، يبدو الوجه الآن على حقيقته..حرًّا من كل التعابير التي قد تحاول فرضها عليه لسبب ما، يكسبه الضوء الشاحب المتسلل عبر ستارة النافذة سحرا خاصا فيبدو وكأنه يشع. لماذا لا أراها في الصباح هكذا! (أمس بدوت كثور هائج أطلق من أسره). كانت منحنية، وهي تحدثني، تمسك بيدها خرطوم الماء لتسقي أحواض الزهور الموضوعة قريبا من مدخل البيت الزجاجي بعد أول مرة ألتقيها فيها. وحين التفتتُ إليّ هربت بعيني بعيدا. كان اتفاقنا قد تم بصمت.. وربما جرى في مكان وعالم آخرين وما علينا سوى تنفيذه. سرت حركة خفيفة في جسدها، وكأنها تطرد النوم منه، قبل أن تفتح عينيها.. عندها عدت إلى الوراء مسندا ظهري إلى الكرسي:

- هل طلع الصباح؟
- لم يطلع بعد.
- لماذا تركتني أنام كل هذا الوقت!
- أردت أن أنظر إليك وأنت نائمة. أتعرفين.. وكأني وجدتك الآن فقط.
- حالم آخر.
- وهل هناك حالمون غيره؟
- واحد فقط.. ولكنه لم يكمل حلمه، فقد أيقظته الحرب، لا أدري إن كانوا هناك، في العالم الآخر، قد سمحوا له بالنوم ليكمله.. أم أنهم أخبروه بنهايته.. فهم يعرفون كل شيء.
- هاجس الحرب يلح عليك كثيرا اليوم!
- أنت، بشرودك، من يدفعني إلى ذلك. أرى فيك بعضا مني. لأذهب قبل أن يشق خنجر الفجر كبد السماء.

أيام قلائل وتتحرر عائدا إلى دوّامتك.. إلى حيث كنت تماما قبل أن تقفل بابك وتخرج.. تختفي عدة أيام ثم تعود بصحبة شرطي وقدم مكسورة. لحسن الحظ أنني أخذت إجازة من العمل ولم أتركه، وإلا لكان موضوع البحث عن عمل آخر سيعيدني إلى أيامي الأولى هنا حيث التجول في الأسواق.. المناطق الصناعية.. أي مكان أصل إليه باحثا عن فرصة عمل مناسبة.. فأنا لا أتقن شيئا على وجه التحديد، لا مهنة لدي.. الاسم الذي أحمله في جواز سفري يمنعني من الاستفادة من تحصيلي الدراسي، ولذلك لم أفكر أن أكون مدرسا كما هو حال الكثيرين هنا.

كان بحثي اليومي يتوقف ظهرا في الحدائق العامة للاستمتاع ببعض الظلّ والتهام شطيرة على عجل قبل العودة إلى غرفتي. الغرباء وحدهم من يحتلون المصاطب الموزّعة في الحدائق والساحات، في مثل هذا الوقت من النهار، هاربين من وحشة جدران الفنادق أو البيوت العربية القديمة حيث يعيشون.. لائذين، بالظلال التي ترسمها الأشجار، من الشمس المحرقة.. منتظرين أن يأخذها البحر إليه كي يكملوا مشوار تسكعهم.

كنت، يوما، جالسا في الساحة المقابلة لمبنى مجمّع الأمانات حين اقترب مني أحدهم. لم يكن قد مرَّ الكثير من الوقت بعد لأنسى الوجه الذي بقي يحتل المقعد المجاور لي لأكثر من يومين ثم غاب بعد أن أنزلتنا الحافلات في منطقة (الفندق) وسط بنغازي:

- لا أعرف كيف أمضي الوقت هنا ورحلتي بعد غد.
- هل تنوي العودة؟
- نعم. لم تستهوني المدينة، وأنا، أصلا، جئت من أجل تجديد الإقامة فقط.
- ....
- وأنت؟
- أفكر بالبقاء. لقد استأجرت غرفة هنا وبدأت أبحث عن عمل.
- أغلب العراقيين يعملون في التعليم.. والقليل منهم في المهن الحرة. الأفارقة كثيرون هنا وهم من يغطي سوق العمل. ألم تسأل في أمانة التعليم عن العقود.. ربما ما زالت هناك فرصة؟
- شهادتي ليست معي.
- ليست مشكلة، بكم دينار تستطيع الحصول على شهادة من معهد (مريدي) ومعها شهادات الخبرة أيضا.
- لم أفكر بذلك حقيقة. في الأردن.. كانت غرامات الإقامة تجثم على صدورنا كالكابوس، وعندما جاء العفو خرجت بسرعة. على أية حال.. قد أعود إذا لم أحصل على عمل.
- أنا حصلت على عمل، لي ابن عم هنا يعمل مدرسا دبّر لي ذلك، ولكني لا أنوي البقاء. لقد عرفت عمّان وعرفتني، كما أن الكثير من العراقيين يترددون على الأردن بشكل دائم، وقد يكون بعضهم من الجيران أو الأقارب، وهذا يوفر لي بعض الاطمئنان.. يلقي ستارا، ولو شفيفا، على الغربة التي تأكلنا، وإذا أصبحت في أفريقيا سأفقد كل ذلك.
- أنا أفكر بالبحر.
- إذا كان الأمر كذلك فنعم، ولكني لا أفكر فيه.
- ....

- على أية حال.. أريد، فيما بقي لي من وقت، مشاهدة أكثر ما يمكن من الأماكن هنا، كنت مارا من هنا لأستريح قليلا قبل أن أكمل تجوالي عندما رأيتك. هلا تأخذ لي بعض الصور.

ناولني آلة تصوير كان يحملها بيده. صورته باتجاهات شتى مظهرا معالم المدينة كما طلب مني ثم عبرنا الشارع الرئيس وسرنا باتجاه البحر لنكمل دورة التصوير. وبعد أن ناولته آلته قال:

- عليّ الذهاب الآن. سأعطيك عنوان ابن عمي.. ربما فرصة العمل التي عرضها علي تناسبك. لا تذهب إليه صباحا، فهو، في الصباح، يعمل مدرسا.. وبعد الظهر سيكون هناك.. في محل للالكترونيات. اذهب إليه عصرا.. أو صباحا في يوم عطلة.

من حقيبة صغيرة تتدلى من معصمه أخرج قلما ودفترا صغيرا دوّن فيه اسم الرجل وعنوانه وكتب أسفلها: (من طرف ....).. وكتب اسمه ثم ناولني الورقة بعد أن نزعها من الدفتر:

- أنا أيضا سأحدثه اليوم مساءً، عندما يعود، بشأنك. ولكن لا تتأخر.. فقد تضيع الفرصة.

أراقبه يبتعد سالكا الطريق المحاذي للساحل. كان الوقت ظهرا. أحسست بالشمس فوق رأسي مباشرة فالتجأت إلى ظلّ شجرة قريبة. أسندت ظهري إلى الجذع المنتصب وعيناي باتجاه البحر.

ومن يومها وأنا هناك، أقضي النهار كله وسط صناديق الصابون وعلب التونة.. أكياس الرز والسكر.. العصائر بألوانها المختلفة.. المناديل الورقية ومواد التنظيف.. وأشياء أخرى كثيرة. كانت فرصة العمل، التي وفرها لي الرجل واقتنصتها بسرعة، مراقبا في مخزن كبير للمواد الغذائية والمنزلية يبيع بضاعته بالجملة وأصرّ مالكه أن يكون من يتولى تجهيز الطلبات عراقيا، (جبت كم من واحد سرقونا.. أنتم العراقيين خير).ضمنني من دلّني عليه حيث كان يعمل في محل للإلكترونيات مقابل للمخزن على جهة الشارع الأخرى. كان النهار يمضي سريعا وسط كثرة الطلبات التي أتسلمها من المحاسب بعد أن يتم تسوية موضوع أثمانها.. عليّ تجهيزها ومتابعة شحنها في سيارات النقل المنتظرة في الخارج. وعندما ننتهي من كل ذلك غالبا ما يكون المساء قد حلّ. يوصلني الرجل بسيارته.. أو أعود ماشيا محاولا إلقاء عبء النهار الطويل الذي مرَّ على الطرقات.. تعليق ما يمكن تعليقه على الأشجار.. رميه إلى الفضاء علّ الريح تحمله بعيدا كي أصل غرفتي متحررا بعض الشيء ليبدأ طقس إعداد العشاء ومتابعة مشاهد شاشة السقف حين تستقرّ رأسي على الوسادة. وفي مرات عدة كنت أغير هذا الطقس كله فلا أعود. أبقى متسكعا في شوارع المدينة.. في الحدائق القريبة من البحر حيث يتجمع الناس ليلة الجمعة أكثر من أي وقت آخر ويبقون حتى ساعة متأخرة، أبقى هناك نادبا أجواء أفتقدها ومستحضرا حلما أراه في كل ساعات يقظتي.. وهو الوصول إلى ضفة البحر الأخرى.

سترجع إلى كل ذلك، ولن يصبح لديك الكثير من الوقت لتكتب بعض ما تتذكره في أوراقك هذه، سيعود المشروع مؤجلا كما كان دوما. لا تدري كم من الوقت سيمرّ حتى تستطيع زج نفسك في مغامرة أخرى لعبور البحر، قد يطول انتظارك هذه المرة، وربما لا.. لا تدري، فالأمر مرهون بالغيب.. وبترتيبات المهربين والأعداد التي تتجمع لديهم.

فحتى ذلك الوقت.. حاول أن تكتب شيئا، ولو بسيطا، متتبعا ما تعرضه لك شاشتك، فقد يأتي يوم تجد فيه الوقت لإكمال ما بدأت وأنت معلّق في السماء خلف نافذة شقة فارهة تطلّ على شارع رئيس في مدينة كبيرة.. أو على مقعد في حديقة خضراء لا تلتقط عيناك آخرها. حاول أن تفعل ذلك فأنت، على أية حال، لن تغفو بسرعة.

حين دخلت.. بدا المقهى غارقا بدخان كثيف بلون الرماد تطلقه (الآركيلات) الموزعة بين الطاولات الضائعة أسفل حلقات الرؤوس التي يكتظ بها المقهى في مثل هذا الوقت. هاجمت أنفي روائح (المعسّل)، بجميع أنواعه، بمجرد أن خطوت خطوتي الأولى متجها إلى الطاولة الكائنة في الركن حيث اعتدت الجلوس دوما. في الطريق إلى هناك صادفني عامل المقهى المصري وهو يحمل، بحرفية واضحة، (صينية) مزدحمة بأقداح الشاي، (الحمد لله على السلامة يا باشا.. إيه الغيبة دي).. وغادرني دون أن ينتظر جوابي مما جعلني أتقدم صامتا إلى هناك.

كانت الطاولة، المنزوية قريبا من جناح الخدمة في المقهى المطلّ على الشارع الرئيس المار بالسوق والذي يبدو، وحده، مضاء أكثر من أي شيء آخر فيه.. إذ أن المحلات تكون، الكثير منها، قد أغلقت أبوابها . والذي تبقّى ما زال يجمع بضاعته من على الرصيف ليغلق، خالية كما هي دوما وكأنها بانتظاري. لمّا جلست.. أدركت ثقل سحابة الدخان التي يلقي بها المقهى على صدري فسعلت. اللغو، الذي تصنعه الأفواه وجهاز التلفاز الصارخ بأغنية رخيصة أجمل ما فيها أجساد فتيات تتقافز بغنج واضح، يصطدم بالجدران وبكل شيء في المقهى قبل أن يعود إلى أذنيك بعد أن يجد بعض منه، مزاحما الدخان الرمادي الكثيف، طريقه إلى الخارج عبر ضلفتي الباب المشرعتين.

قال لي، وهو يضع قدح شاي على الطاولة بعد أن مسحها بقطعة قماش مبللة تتدلى من حزامه،مقلّدا اللهجة العراقية بشكل سيئ:

- من زمان ما شفناك؟
- كنت مريضا.
- سلامتك.. ألف سلامة.

ولمّا سألته عن الشخص الذي غالبا ما تكون لديه أخبار البحر وكان دليلي إلى الرحلة الأخيرة الفاشلة قال:

- هو الآخر غاب كم من يوم، لكن أمس كان هنا. اليوم مش عارف حايجي وإلا لا. أيوا... جاآآي.

قال ذلك مجيبا على صوت كان يدعوه. وتركني ومضى.

من هذا الركن أرى بوضوح كل أرجاء المقهى وزواياه إضافة إلى البوابة الرئيسة. لا يرغب الكثيرون في الجلوس إلى هذه الطاولة، فهي بعيدة عن كل شيء ولا توجد مروحة سقفية قريبا منها مما يجعل الجو عندها خانقا خصوصا وأنها قريبة من الموقد، فأنا، إن جلست عندها، لن يقتحم أحد عليّ عزلتي فأبقى منفقا الكثير من الوقت في متابعة الصفقات التي تتم هنا.. فالمقهى ممتلئ بالبنائين والكهربائيين والكثير من ذوي المهن الأخرى، يلتقون هنا مساءً، أمّا تلك التي لا يمكن الحديث عنها أو الخوض فيها أمام الآخرين فكانت تجري في الخارج بعد عبور الشارع إلى الناحية الأخرى حيث يكون الرصيف شبه خال في مثل هذا الوقت من المساء. بهذه الطريقة كان الاتفاق بيني وبين الرجل حول الرحلة الأخيرة. أمّا كيف عرفته.. فالحقيقة هي أني لم أعرفه.. هو من عرفني. هؤلاء السماسرة لهم حدس في معرفة الوجوه. ولما كنت خائفا من الحديث معه أنكرت، ولم يلحّ هو.. وكأنه كان يعلم أني، يوما ما، سأبحث عنه، وهذا ما حصل،

إلا أننا لم نخرج.. وإنما بقيت محتميا بمنضدتي متمترسًا بها، (بإمكاننا الحديث هنا، لن يسمعنا أحد وسط هذه الضجة)، وسحبت له كرسيا ليجلس.. فجلس.

أردت إكمال قدح الشاي فوجدته قد برد تماما. نهضت خارجا. تبدو المدينة ضيقة أكثر من قبل، تتداخل طرقها وكأنها متاهة.. وأنا فيها ضائع لا أهتدي لطريق توصلني لباب غرفتي. إنها المرة الثالثة، منذ أن عدت، التي أجد نفسي فيها تائها في طرق أعرفها. ماذا حصل لك؟! هل فقدت ألفة المكان الموهومة.. تركتها هناك.. تحت سقف الغرفة (الجينكو).. أو ربما قفزت من جيبك وأنت تركض بين الأشجار محاولا الهرب قبل أن تلتوي قدمك وتسقط؟ وقعت منك ولم تلتقطها حين سحب الرجل يدك لتقف ثم تسير جنبه إلى سيارات الشرطة المنتظرة في الخارج؟ أم أنك تهرب من خواء غرفتك المضجر التي لم تكن متطرفة بما يكفي حتى توافيك فيها سارا أخرى كنت ستجدها لو بحثت لتسحب من فمك تلك المرارة التي تجدها فيه دوما.

- ضع في فمك قطعة سكر.
- لا يتعلق الأمر بقطعة سكر.
- بم يتعلق إذا؟
- بماض يسكنني وأسكنه.. ومستقبل بلا ملامح واضحة.
- أنت تصنع لنفسك سجنا لتعيش حالة السجين. كم مرّ على وجودك هنا وأنت لم ترَ المدينة إلا مرتين أو ثلاثا عدت بعدها مهموما أكثر منك قبل خروجك. ستأكل هذه المزرعة.. بأشجارها ومعداتها الصدئة وبكل شيء فيها.. ستأكل ما تبقى من أيامك. هل ستبقى هنا مزارعا منسيا طوال حياتك.. توزّع أكياس الأسمدة وتجمع المعاول والمعدات التالفة لتغلق عليها باب المخزن قبل أن تعود إلى قبرك هذا منتظرا هذه البائسة لتلهو معها قليلا؟

كانت الرغبة قد انطفأت في كلينا. بقيت مضطجعا وعيناي معلقتان بالسقف. يكشف الضوء المخترق للنافذة والستارة المسدلة، إذ كان ضوء الغرفة مطفأ، جانب وجهها القريب بعين مغمضة وخدّ ينحدر من قمته على عجل فيما كان صدرها يعلو ويهبط بهدوء حسدتها عليه.

حتى ذلك الوقت لم أكن قد عرفتها، وربما لم أعرفها حتى غادرت ملوحا لها، وهي واقفة في صالة المودعين، قبل أن أغيب. ما قالته لي في أول لقاء بيننا لم يكن صحيحا، فعندما أعطيتها، مرة، مجموعة من ثيابي لتغسلها.. أعادتها إلي مغسولة ومكوية بعناية، ولكنها لم تأخذ فلسا واحدا، ولم تقل شيئا.. بل اكتفت بابتسامة وهزة رأس. أتذكر أني سألتها يوما:

- إلى متى ستبقين معي؟
- ما دمت لا تسألني عن شيء يخصني.
- هناك سؤال يلحّ عليّ.. ولكني سأعيد صياغته بعد قولك هذا.
- ذلك أفضل.
- لماذا أنا تحديدا؟
- لأنك غريب، فحتى لو اختلفت معك وانقطعت عنك ستفكر ألف مرة قبل أن تقدم على شيء يسيء إليّ. وإذا أردت إجابتك بطريقة أقل فضاضة من هذه فأقول: لأنك تحفظ سري. هكذا كانت البداية.
- وبعد ذلك ؟
- هذا شيء يخصني. انتظر لحظات الضعف أو التجلي لعلّي أبوح لك بشيء.

وكان الأمر كذلك فعلا، إذ لم يكن لي أحد هناك لأتحدث له عنها.. ولو تركتني لكنت سأكتفي بما حصلت عليه منها. بعد أن سدّ كلانا بعضا من جوعه أصبحنا أكثر هدوءا، كنا نجلس، لياليَ عدة، نتناول العشاء الذي تحضره معها، نبقى نتحدث حتى ساعة متأخرة، بعدها تتركني وتمضي. لم أكن مقتنعا أن هذا كل ما كانت تريده.. ولكني كنت على يقين من أنّ هذا كل ما كنت أريده.

أوصلني زقاق مظلم طويل إلى الشارع الذي تقع فيه غرفتي فاتجهت إليها قبل أن أفقدها مرة أخرى. في الداخل.. كل شيء على حاله كما تركته صباحا. لا ادري كم من الوقت قضيته ماشيا، إلا أني كنت أحس بألم يتسلّق ساقي متجها إلى ظهري. معدتي خاوية. ألقيت جسدي على السرير لعلّه يمتص بعض التعب الذي يهدّه، بعدها أقوم لتناول شيء.. وربما أستطيع الكتابة في هذه الأوراق المتناثرة على الطاولة والتي هجرتها منذ أيام.

وبمجرد أن وضعت رأسي على الوسادة بدا أمامي المقهى غارقا بدخان كثيف بلون الرماد ....

(٢٦)

لم أخرج اليوم.قضيت الصباح كلّه أتصفح الأوراق التي عكفت على كتابتها في الفترة الماضية فلم أجد إلا القليل عنّي.. حذر ما زال يبسط سلطانه عليّ رغم مرور الوقت وبعد السفر، لم أنجح في التخلص منه حتى الآن، ومع ذلك.. فما سمعته من رفاق الرحلة الأخيرة التي فشلت قبل أن تبدأ والذي ما زالت تحتفظ به تلك الغرفة الصغيرة بين جدرانها وإن تطاير جزء منه عبر الباب والنافذة المفتوحتين كما تطاير من ذاكرتي.. فيه الكثير مما عشته، شعرت وقتها، وهم يتحدثون، أني مجزأ بين كل هؤلاء، كل منهم يحمل بعضا مني، ولا عجب في ذلك، فقد عشنا جميعا تحت سقف واحد وبظروف متشابهة. ربما كنت الوحيد بينهم من دخل سجنا، أو فيهم من دخله ولكنه يخاف، حتى هذه اللحظة، قول ذلك. فكأننا جميعا هربنا لنتخلص من الخوف.. ولكننا حملناه معنا.

- هل ما زلت خائفا مني؟
- هل أبدو كذلك؟!
- لا أدري. فأنت لا تتحدث إلا إذا سألتك وكأنني أستجوبك.
- إذا كنت خائفا.. فليس منك.
- ربما تقول: لماذا تقدم لي هذه الفتاة نفسها بهذا الشكل.. ماذا تريد؟
- قلت ذلك فعلا.
- وإلى ماذا توصّلت؟
- أنا قانع بهذا الوضع مهما كانت أسبابه.
- حدثني إذا.. كيف وصلت إلى هنا.

وحدثتها. كانت تسند رأسها بذراعها المطوية على الوسادة فيما أنفاسها تصافح جانب وجهي. يدها الأخرى ترفع، بين فترة والثانية، خصلات شعرها المتدلية فأراها بوضوح مصغية باهتمام. حدثتها عن كل شيء متناسيا حذري.. أو ربما خوفا من فقدها إن أنا لم أفعل ذلك.

أقلّب ذاكرتي فلا أجد شيئا أقوله. لا يعني أحدا أني ذهبت إلى العمل وعدت، نمت أو تجوّلت هنا وهناك، فالكل يفعل ذلك. فترة بقائي في الأهواز هي الأكثر خصوبة، ربما وجود سارا جعلها كذلك. الأشهر القليلة التي بقيتها في سوريا.. قضيتها خائفا، لم يرَ أحد جواز سفري.. بينما كنت أقلبه كل ليلة باحثا فيه عمّا يثير الشك. ولم يطل بقائي هناك، فالسوريون، أساسا.. الكثير منهم، موزّعون في الخارج بحثا عن حياة أفضل. على الحدود مع الأردن هرب الدم من وجهي فبدوت أصفرا كـ (علب الكركم)، لو رأتني أمي وقتها لقالت ذلك.. ولكنها لم ترني، لم أتنفس إلا بعد أن غادرنا آخر نقطة يتم فيها فحص جوازات السفر وأختام الدخول. ثم ألقت بي السيارة في منطقة (العبدلي) لتبدأ رحلة البحث عن فندق رخيص، بقيت عدة أيام في أحدها، وكان يأخذ دينارا إضافيا حتى تتمكن من استخدام الماء الساخن لكي تستحم.

اهتديت للمقاهي والمطاعم التي يتواجد بها العراقيون.. ومنا حصلت على سكن مع مجموعة في منطقة (جبل النزهة)، كان الرجل يشاركني طاولتي لما سألته. (كان معنا شخص سافر قبل أيام.. ممكن أن تأخذ مكانه). كانت الدار بغرفتين مع المنافع وباحة مكشوفة تقود إلى الباب. (كنّا ثمانية، كل أربعة في غرفة، وكان في غرفتنا. أنت ستأخذ مكانه.. هنا). الغرفة التي فتح بابها مربعة مفروشة بحصير من النايلون تتناثر فوقه الأغطية على فرش من الأسفنج في حين تتكوّم في الركن البعيد المواجه للباب مجموعة حقائب قديمة وأكياس مربوطة. على الجدران.. تتدلى ملابس، بعضها مغلف بالنايلون ومعلّق بعناية، من ذيول مسامير ناتئة من الجدار على صحف مصفرة لتحول دون تلوّنها بالطلاء المتقشر الذي

الجدار. وكانت النافذة، المطلة على باحة الدار، مفتوحة تلقي الضوء على الأرض الخرسانية المتشققة التي تطوّق الحصير.

تسمّرتْ عيناي على سرير حديدي يشبه الذي كان في غرفتي في مزرعة الأهواز.. لا أكاد أفرقه عنه! حتى الطلاء المتقشر في العارضة القريبة من الرأس موجود فيه وكأنه رسم رسما!

- لمن هذا السرير؟
- للرجل الذي سافر. طلب منّا أن نبيعه، لم يستطع أخذه معه. هل تشتريه؟

واشتريته، مع فراش الأسفنج المطروح عليه، بسبعة دنانير دفعتها مع خمسة أخرى مقابل بدل إيجار الدار.

عصرا.. انتقلتُ إلى الدار لأخضع، المساء كله، لاستجواب طويل أجبت على كل أسئلته. لم يكن أحد من الرجال السبعة، الذين يسكنون الدار، من البصرة.. ولذلك زال خوفي من أن يعرفني أحد خصوصا وأنا أحمل اسما غير اسمي بجواز مزوّر مع أني أصبحت أكثر اطمئنانا بعد أن عبرت به أكثر من دولة.. حتى أنني عندما سمعت من يناديني، ذات مساء، باسمي القديم لم ألتفت وكأن ذلك الاسم لم يعد لي، بقيت أسير.. أو أهرب حتى وضع الرجل يده على كتفي، ولما التفت إليه.. عرفته.

في غرفته، في الفندق حيث يسكن وقد أخذني إليه وكأنه يخشى الحديث معي أمام العراقيين الذين تكتظ بهم الساحة الهاشمية، عرفت منه، ولأول مرة، أخبار أهلي هناك. (أنت بحكم المفقود، فلا أحد ممن خرج من معتقلي الانتفاضة قد رآك.. ولست موجودا في وحدتك العسكرية في بغداد. أنت تعلم أنه لا يمكنهم البحث عنك طويلا لأن هذا سيفتح ملفكم من جديد.. ولستم بحاجة إلى ذلك في مثل هذا الوقت تحديدا للمحافظة على من تبقى. كيف وصلت إلى هنا)؟ بقيت معه حتى وقت متأخر. سألته عن كل شيء.. وحدثته بكل شيء. قبل أن أمضي عانقني بحرارة. (أسبوع وأنا هنا ولم أرك إلا اليوم! غدا، بعد المغرب، سأعود).

في صالة الفندق المضاءة كان عدد من المسافرين يضعون حقائبهم أمامهم على أهبة المغادرة.. آخرون، ما زالوا يسحبون خلفهم بعضا من طول الطريق، وصلوا لتوّهم بانتظار حصولهم على مكان يأوون إليه. (دعني ألتقط صورة معك، فلن يصدقوا أني رأيتك). وفي زاوية الصالة المقابلة للباب.. أمام شجرة بلاستك يعلوها الغبار وقفت إلى جانبه محاولا رسم ابتسامة سرقتها ومضة آلة التصوير. (قد أكون هنا بعد ثلاثة أشهر. على أية حال.. اسأل عني هنا، فأنا أنزل في هذا الفندق دائما).

عند بوابة الفندق عانقني مرة أخرى وسار معي قليلا قبل أن يصافحني ويعود. كان الرصيف شبه فارغ إلا من أجساد قليلة تحثّ الخطى وكأنها تهرب من الظلمة التي تصبها الأزقة في الشارع الرئيس .

(٢٧)

اسمي.. الذي فقدته وأوشكت أن أنساه.. أعاده لي الرجل، الوجوه التي فارقتها كل هذه الفترة عادت أمامي بذات الملامح التي رأيتها فيها آخر مرة حين تركت البصرة عائدا إلى بغداد. كانت الحرب الجوية قد بدأت.. والطريق إلى بغداد لم تكن سالكة تماما بعد تدمير العديد من الجسور والمعابر. ودعتهم جميعا وخرجت. أمي، كعادتها، رمت (طاسة) ماء خلفي وهي تتمتم. ولم أرَ أحدا منهم مرة أخرى، إلا أنني عندما رأيت الرجل أحسستُ، وهو يحدثني عنهم، وكأني أراهم واحدا واحدا. قضيت تلك الليلة معهم، عشت لحظات الفقد.. أخي ذاك.. الذي خرج ذات ليلة ولم يعد، ولم يره أحد مرة أخرى، إلا أنني رأيته مرة واحدة فقط، وهم يقودونه إلى غرفة التحقيق، عبر الكوة الصغيرة في الباب الحديد الموصد علي من الخارج.

- وهل أخذوك معه؟
- لا. ولكنهم جاءوا، ليلتها، لتفتيش الدار، أخذوا مجموعة من كتبه.. وأخذوني معهم. رأيتهم وهم يقتادونه. بقيت واقفا.. ملتصقا بالباب.. أسمع صراخا يخترق الأبواب الموصدة.. ياآآه.. لم تذكريني بكل ذلك الآن؟
- الهروب لن يجديك. عليك أن تهضم ماضيك ثم تلفظه حتى تتخلص منه ويصبح مجرد ذكرى.
- وهل تفعلين أنت ذلك؟
- لو لم افعل ذلك لما كنت معك الآن. ولكنّ لي حاضرا أريد تجاوزه ونسيانه.. ولا أعرف كيف.
- ما الذي يبقيك هنا؟ اذهبي إلى أي مكان آخر. لو كنت مكانك لسافرت، ولكني لا أملك جوازا.. لا أملك غير هذه الورقة التي خرجت بها من معسكر اللاجئين.
- لا أستطيع. ليس الأمر بيدي. ربما أكون في مكان آخر في وقت ما، هذا كل ما أستطيع قوله لك. ولكن هل تنوي المغادرة فعلا؟
- نعم.. لو كنت أملك جوازا.
- يستطيع صاحبك، صاحب المزرعة، أن يساعدك لو أراد، أنا أعرفه. أليس صاحبك؟
- ليس صاحبي. أخبرتك كيف جئت إلى هنا. كما أني لا أستطيع أن أطلب منه شيئا كهذا.
- وماذا لو وفّرت لك واحدًا؟
- هل حقا تستطيعين!؟

وعندما خرجت كنت ممددا على السرير غارقا برائحتها العالقة بجسدي.. بالجدران.. وبكل شيء حولي في حين يتبعها خيط منها إلى الخارج عبر الفتحة الضيقة أسفل الباب. لا أدري متى نمت. في الصباح لم أستيقظ، عندما أيقظني زميلي، للذهاب إلى العمل. وقت الضحى.. أخذت الطريق نازلا إلى الفندق وكان الرجل جالسا في صالة الاستقبال. (هل تحمل رسالة مني إليهم)؟ (سيكون ذلك أفضل بالتأكيد). أخذت ورقة من موظف الاستقبال وكتبت رسالة على عجل طواها الرجل ووضعها في جيبه.

- كم ستبقى هنا؟
- لا أدري.. حتى أحصل على فرصة للخروج.

- نحن نهيئ لرحلة الآن.
- أخشى أن تكون مثل الرحلة السابقة.
- لا، هذه المرة مضمونة. أتعلم.. في المرة الماضية عندما ألقي القبض عليكم.. في ذات الليلة أبحرت أكثر من ثلاثة زوارق من أماكن مختلفة. أنتم كنتم الطعم.. هكذا كان الاتفاق.
- وربما نكون طعما هذه المرة أيضا.
- لا.. لا. الدور لنا هذه المرة وقد وضع الطعم في مكان آخر. ماذا تقول؟

على عادته، في مثل هذا الوقت من المساء، كان المقهى مكتظا، صخب يعلو من الطاولات الكثيرة المتناثرة بفوضى ليطغى على صوت التلفاز المرتفع الذي كان يعرض فليما مصريا لا يتابعه أحد. من طاولتي المنزوية بعيدا كنت أنظر إليه غائصا في الدخان الكثيف الذي يطلقه من أنفه وفمه.. يسحب نفسا عميقا من (آركيلته) ثم يسعل بشدة. طوال الأيام الماضية كنت أنتظره، ولكنه لم يأت إلا قبل ليلتين، قال إنه يعلم بما حصل، (هكذا هي الحال دائما). قال لي إنه كان هناك يتابع موضوع الإعداد لرحلة جديدة، (ستنجح هذه المرة، تأكد من ذلك)، وكيف لي أن أتأكد؟ (على أية حال عندما يحين وقتها سأخبرك، والأمر إليك). وها هو قد جاء ليخبرني:

- وهل سنبقى ننتظر في نفس المزرعة؟
- لا. ستكونون في مكان ليس بينه وبين البحر إلا خطوات.

ولم يكن لي خيار آخر.. أنا الهارب من سجن، لو بقيت فيه، كنت ضائعا مثل الكثيرين.. مطمورا في مكان ما.. معلّقا في واحدة من الحلقات التي كنت أراها تطل علينا من السقف وكأنها تنتظرنا.. مربوطا من معصمي بجامعة إلى أنبوب من الحديد قريب من الأرض يركلك ويصفعك كل من مرّ عليك، هذا كله رأيته. إلا أنني لم أره إلا حين مرَّ من أمام باب زنزانتي. كنت واقفا.. ملتصقا بالباب وعيناي تراقبان الممر.. وعندها رأيته، كان أحدهم يقوده وعيناه معصوبتان. بقيت ملتصقا بالباب، ولكني لم أره يخرج. كل ما رأيته.. اثنان من ذوي البدلات الخضر يسحبان بطانية تترك خلفها، على الأرض القذرة، آثار دم طري جاء بعدها عامل النظافة، وكان سجينا هو الآخر، ليمسحه.. وكنت أراه.. باقيا فوق البلاط بانتظار يد أخرى لترفعه. عندما رآني أنظر عبر الكوة أشار لي بعينيه أن ابتعد.. لوحدهما، ركبتاي، انثنتا. وفي المساء.. أو الصباح.. أو ربما في زمن آخر لا أعرفه همس بأذني، عندما اقترب من الباب، وهو يمسح الممرّ: (كان هذا أخاك).

- سأذهب. متى ستنطلق الرحلة؟
- ربما بعد أيام بمجرد أن يكتمل العدد. عليك أن تكون جاهزا.

(٢٨)

من بين المجموعة التي تتردد علي أو أذهب إليهم كلما شعرت بحاجة إلى ذلك كان هذا الرجل، لا أعرف ما الذي يشدني إليه، قد يكون هدوؤه.. أو صمته على الأصح. كان يعيش يومه كالكثيرين هنا: الصباح في العمل.. وفي المساء يتجوّل قليلا على شاطئ البحر أو في أي مكان آخر، وقد لا يخرج.. بل يبقى أمام التلفاز حتى يغفو ليصحو مبكرا آخذًا طريقه، مثل كل يوم، إلى محل لسمكرة وصبغ السيارات حيث يعمل. لا أتذكر أني سمعته يوما تحدّث عن السفر أو البحر، كان، وهو يستمع إلينا، يبدو كحالم كبير يحلّق بعيدًا. لم يسألني يوما عن شيء يخصّني وكأنه كان مكتفيا بهمومه.. وكان الوحيد الذي حدثته عن نيّتي في الهرب، من جديد، عبر البحر:

- ألا تذهب معي؟
- أنت تعلم أن لي هناك زوجة وأطفالا وأنا أعمل هنا كي أوفر لهم ما ينفقونه. ثم افترض أني وصلت.. كم من الوقت سأحتاج حتى أحضرهم معي؟ لا أريد أن أقضي بقية حياتي غريبا.. ثم أنني أنوي العودة قريبا، لقد سئمت.

أنا الآخر كنت قد سئمت من البقاء بين صناديق مواد التنظيف (والمعكرونة) وعلب الشاي وأكياس السكر وأشياء كثيرة بدأتُ أمقتها. أخبرت الرجل، صاحب المحل، أنني سأترك العمل لأن في نيتي العودة.. هكذا أخبرته، وقد اقترح عليّ أخذ إجازة لأسافر ثم أعود.. ولكنني رفضت.

لا أعرف، على وجه التحديد، كم من الوقت بقي لي هنا.. وما إذا كنت سأتمكن من تدوين شيء أم لا، ولكني سأبقى أحاول. أعترف أن موضوع الرحلة هذه قد شتتني تماما، لقد عشت هذا الإحساس في كل مرة كنت أنتقل فيها إلى مكان جديد. أشعر أحيانا أن لديّ الكثير لأقوله.. غالبا ما يكون ذلك حين أعود مشيا إلى غرفتي، ولكن بمجرد وصولي ومواجهتي لبياض الورق تصبح ذاكرتي أكثر بياضًا منه.

لا أدري إن كان سيتيح لي الوقت مرة أخرى، وفي مكان ما، إكمال مشروعي هذا. أفكر أحيانا بترك هذه الأوراق هنا مع شخص ما على أمل استردادها مرة أخرى.. وأحيانا بأخذها معي.. ما زلت مترددا.

حسن. فما دمت لا أجد شيئا أقوله فلأذهب إلى السوق لأشتري بعض الحاجات البسيطة كما يفعل المبحرون.

(٢٩)

قد لا يتسع الوقت لأقول الكثير، فربما يعودان في أية لحظة، عندها لن يكون بإمكاني أن أكتب شيئا خصوصا وأني، بالأصل، مشتت من قمة رأسي إلى قدمي. هذه الأوراق هي آخر ما سأدونه على عجل، وسأتركها لدى الرجل ليفعل بها ما يشاء، فالشعور باني سأركب البحر هذه المرة يسيطر علي حتى كأني أحس بمائه ورماله تلامسان قدمي مع أني جالس فوق سرير وحيد تحويه الغرفة بمواجهة جهاز تلفاز أطفأته بعد خروجهما لأتمكن من جمع أفكاري المبعثرة، خزانة قديمة.. وكارتون كبير موضوع في زاويتها البعيدة ممتلئ بأكياس سوداء مربوطة بعناية.

حين أخبرت صديقي أن هناك رحلة ستنطلق.. لم يجبني، نظر في عيني طويلا ثم قال: (قد تنتهي كسابقاتها. لا أعرف سبب إصرارك المجنون هذا على عبور البحر. في المرة الأخيرة ألقي القبض عليكم لينتهي بك الأمر بكاحل مكسور حتى وصلت إلى هنا بصحبة شرطي مشرّد لا يملك حتى ثمن الحشيش الذي يدمنه. كيف سينتهي بك الأمر هذه المرة.. لا أدري). كنت أتمنى أن يغير، هذا الحالم الكبير، إستراتيجيته ويذهب معي، ولكنه آثر الجلوس، كعادته، أمام البحر سارحا بعينيه إلى نقطة بعيدة هناك لا يراها أحد غيره. عندما قال لي: (سأذهب معك).. قلت في نفسي إن المعجزة حصلت.. ولكنه أضاف: (لي صديق في (الزاوية) لم أره منذ مدة طويلة، سنمرّ عليه معا.. نقضي الليل عنده.. ثم تذهب أنت إلى (زوارة) وأعود أنا. يراودني إحساس أني لن أراك مرة أخرى).

وهكذا كان. فالرجل، الذي أنا في غرفته الآن وجالس فوق سريره، صديق صديقي، تصافحا وتعانقا بودّ ثم عرّفني عليه، أخبره أني في طريقي إلى (زوارة)، لم يعلّق الرجل وكأنه اعتاد على أمر كهذا. بعدها تشعّب الحديث الذي أضعت خيوطه مفكرا فيما إذا كان سيتاح لي بعض الوقت لأدون شيئا، قد يكون الأخير، أضيفه إلى هذه الأوراق قبل أن أغادر.

أيقظني صوت صديقي وهو يقول لي إنهما سيخرجان قليلا ثم يعودان.. وسألني إن كنت أحب مرافقتهما فامتنعت متحججًا بطول الطريق وأنني بحاجة إلى أن أضع ظهري قليلا على الأرض، جهّز لي الرجل فراشه، (ارتح هنا).. ثم خرجا معا. وبمجرد خروجهما فتحت الحقيبة السوداء الصغيرة التي معي وأخرجت الدفتر الذي أكتب فيه.. وها أنا أحاول إمساك طرف خيط يحل العقد الكثيرة، التي تمنع أفكاري من التدفق، إن أنا سحبته.

كنت أتمنى أن يتاح لي وقت أطول، فما زال هناك الكثير لأقوله، ولكن هذه الرحلة الأمل جاءت بشكل مفاجئ كما أن الكسل الذي يغلّفني كل مساء بعد عودتي من العمل وعادة التسكع على الشاطئ مقابل فندق (تبستي) في بنغازي حتى وقت متأخر لا يتركان لي كبير فرصة للخلوة بالنفس ونبش رماد الذاكرة المتآكلة الصدئة ونفخ جمرة قد أجدها فيها فربما تشتعل، فقد استهواني التجوال هناك، ومع أني كنت أقضي بعض الوقت مع عدد من العراقيين ممن أجدهم.. الحديث هو ذات الحديث الذي نخوضه في كل مكان وفي أي وقت تعقبه فترة صمت نلج من خلالها إلى حديث السفر والهجرة والبحر.. مع ذلك فقد تحاشيت الكثير ممن أعرفهم لأبقى وحيدا مستمتعا بمنظر العوائل المزروعة على عشب الحديقة الممتدة على طول المسافة بين الشارع الرئيس والبحر، جو تفتقده أنت الزاحف نحو منتصف الأربعينيات من عمرك بجسد محطم قضم الخوف الكثير من أجزائه.. وها هي الغربة، بسنواتها التي لا تدري كم ستطول، تجهز على ما تبقى.

أهذا ما تريد قوله في كلماتك الأخيرة هذه؟ لا تدري! ما زلت تبحث عن نافذة، ولو ضيقة، تنفذ من خلالها إلى دواخلك المعتمة، تمسك، ولو شمعة، وتدخل لترى كل ما دفعت به إلى هناك محاولا طمره ونسيانه، لم تكن تعلم أن الرغبة في العيش فيه مرة أخرى أو تصفّحه، ولو على عجل، ستراودك، إنه الخواء.. هو ما يجرك إلى ذلك.. المجهول الذي أنت ذاهب إليه.. محاولة منك للتشبث بالحياة قبل فقدها، فأنت هنا، كما كنت في كل منافيك، جثة تتحرك.. تأكل وتشرب وتنظر بعينين مطفأتين إلى كل شيء حولها دون أن ترى شيئا غير مكانك الأول: النهر ورائحته.. النخل و(الطناطل).. أطفال بـ (دشاديش) مقلّمة ونساء زحف السواد على أجسادهن بمجرد أن فتحت الحرب فاها وبدأت التوابيت الملفوفة بعلم الوطن تتوافد وكأننا وحدنا طرداء الموت.. اختفى الكثيرون في مكان يعرفه الجميع دون أن يجرؤ أحد على الإشارة إليه، وها هو من تبقى يسيح في أرض الله.. أو باقيا هناك يمضغ أيامه وسنيّه بصمت منتظرا معجزة تحصل.

مرة أخرى تفقد طرف الخيط، فليس هذا ما تريد قوله.. وقد يكون الأخير فعلا في دفترك هذا.. الذي حرصت على إحضاره معك. ابحث عن طرف خيط آخر قد تجده تائها في مزرعة الأهواز حيث الأيام الطويلة التي قضيتها تتابع المزارعين وتسجل احتياجاتهم.. الفتاة التي تحاشيتها كثيرا، وأنت خائف، حين كانت تلتهمك بعينيها، ولكن خوفك كله تبخّر حين وجدتها في غرفتك ذات ليلة لتمتصّ، بجسدها البض، ارتجاف جسدك الناشف وخيباتك كلها، وحين حدثتها، ورأسها بين ذراعيك، عن كونك تريد المغادرة قالت إنها ستساعدك بشرط وحيد وهو أن تبقى تتردد عليك، وقبلت، كنت شاكا في البداية، ولكنها أدهشتك حين أحضرت لك جواز سفر مزورا وعليه كل الأختام المطلوبة.. بصورتك وباسم اختارته هي لك وما زلت تحمله، ليلتها أدهشتها أنت أيضا حتى قالت لك: أشعر أنك تودّعني. ولقد ودّعتها أيضا لمّا حضرت معك إلى المطار لتعرّفك على شخص قالت إنه سيبقى معك حتى تحط قدميك في مطار دمشق. ومع أنك دفعت الكثير لتحصل على هذا الجواز.. مع ذلك.. فمن غير مساعدتها لم تكن تعرف كيف تفعل ذلك.

هل تريد أن تقول كل ما لم تقله بعد بهذه العجالة؟! تشعر بالحزن كونك ستفارق هذه الأوراق دون أن تبثها شجونك كلها. ستقضي الليلة هنا، وغدا ستغادر وحيدا.. تاركا خلفك كل شيء. لِمَ تبدو الأشياء محببة إليك حين توشك على تركها أو فقدانها؟! هذا الإحساس ليس جديدا فيك، تتذكر أن شعر رأسك كان يبدو في أجمل حالاته حين يصففه لك الحلاق قبل المباشرة بقصّه، وحين تركت العراق في خروجك الأول، هاربا ومطلوبا وبعد أن تسلّقت ضفة النهر وقفت طويلا محدّقا إلى الضفة الأخرى محاولا أن تملأ عينيك حتى من الظلام وأشجار النخل التي تتراءى لك كالأشباح.. هذا ما فعلته مع أنك طالما قلت إنك سترمي خلفك سبع حجرات حين تخرج من البلد.. ولما سحبك سامي من يدك أوشكت الدموع أن تفرّ من عينيك. وها أنت تكتشف الآن أنك مرتبط بكل هذه الأماكن التي مررت بها من قبل مع إنك كثيرا ما كنت تنكر ذلك.

تتيه مرة أخرى عن مرادك. قريبًا سيعود الرجلان، وعندها لن تستطيع أن تفعل شيئا.. تعيد دفترك إلى حقيبته وتضطجع على الفراش.. هذا ما ستفعله.

ستقضي الليلة هنا.. وغدًا ستغادر وحيدًا. المقهى الذي وصفه لك الرجل .. تعرفه، جلست فيه مرة منتظرا من يأتي لأخذك إلى مكان ما قريب من البحر، شربت عددا لا يحصى من أقداح الشاي ولم يرن هاتفك، وعندما فعل جاءك صوت رجل لا تعرفه ليقول لك بأن الموضوع قد ألغي.. وقفل الخط فعدت أدراجك. تتمنى أن لا يحدث ذلك هذه المرة. الأيام القليلة التي ربما تقضيها منتظرا.. تحمّلها على مضض، انظر بعينيك إلى الأفق البعيد خلف البحر، هنالك مساحات خضر أعدت من أجلك.. شوارع مضاءة لا يلتقط بصرك نهاياتها. ستجلس

وحيدا، يوما ما، على مقعد منزو في حديقة واسعة وتتذكر كل ذلك، وقتها تتمنى أن يكون دفترك معك لتكمل ما بدأته.

سآخذ عنوان الرجل ورقم هاتفه لأتصل به من هناك ليرسله لي. والآن.. أشعر أنهما قد يعودان في أية لحظة. سأعيد الدفتر إلى حقيبته وأضطجع على الفراش فظهري قد بدأ يؤلمني فعلا.

(تمّت)

البصرة – ٢٠١٣ م

محمد عبد حسن